المعالجة الإسلامية للشهوات

عبد الحميد كشك

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

اللهم صلِّ وسلم على سيدنا وحبيبنا ونبينا محمد بن عبد الله طب القلوب ودوائها، وعافية الأبدان وشفائها، ونور الأبصار وضيائها، أكرم الخلق وسيد المرسلين المبعوث رحمة للعالمين ليخرجهم من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة ومن ظلمات الشهوات إلى نور الهدى والحق المبين.

أما بعد:

أقدم هذا الكتاب «**المعالجة الإسلامية للشهوات**» بناء على استفسارات عديدة تلقيتها من شبابنا المسلم فى مشارق الأرض ومغاربها تدور حول صراعهم بين نفوسهم التى تتبع الهوى وبين أرواحهم التى تتوق إلى الطهر والكمال وإلى اتباع شريعة الحق، صراعهم بين الفطرة البشرية التى جُبلت على حب الشهوات، وبين المنهج الإسلامى الذى ارتضوه دينًا لهم، كيف يقاومون ذلك الصراع الذى قد يبعدهم عن طريق الله، وكيف ينتصرون عليه؟ كيف يتحررون من ربقة النفس وشهواتها ويتحكمون هم فيها لا أن تتحكم هى فيهم؟ كيف يتصرفون إذا دفعتهم نفوسهم الأمارة بالسوء إلى جريمة الزنا وما أبشعها من جريمة قد تقود المرء إلى الدمار والهلاك؟.

ماذا يفعلون إذا سيطر عليهم حب المال وقادهم إلى السرقة؟ فرغم أنهم لم يقعوا تحت طائلة القانون الوضعى إلا أنهم مازال فيهم قبس من النور يخشى عاقبة القانون الإلهى؟.

ما هو الحل أمام من تلجئه ظروف الحياة الدنيا إلى استثارة غرائزه الجنسية؟ وغريزة الجنس من الدوافع الفطرية التى إذا توترت أتعبت وإذا ترك لها العنان دمَّرت وأهلكت، وإذا ثارت أفزعت.

كيف السبيل إلى من تمكن حب الأبناء فى قلبه ودفعه إلى هجر الأقارب أو ارتكاب

ما يغضب الله ليُحقق لهم أمانيهم بما يبعدهم عن طريق الحق ويجعله يجنى الحسرات والمرارات وضياع الأبناء؟ إلى هؤلاء جميعًا وغيرهم أقدم ذلك الكتاب من واقع إيمانى بقول الله عز وجل: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ (٧١) ﴾ [التوبة: ٧١].

ومن واقع إيمانى عميق بعظمة الإسلام فى تشخيص الداء ووصف الدواء، فالإسلام عندما كان منهجًا تطبيقيًا نشر ألوية الحق والعدل على ربوع الأرض، وانساب كالبحر الطهور يغسل وجه الأرض من أرجاسها وأدناسها وأنجاسها، وحقق للمسلمين العزة والكرامة والطمأنينة، وكل ما ينشده أى إنسان على وجه الأرض، لأن هؤلاء المسلمين اندرجوا فى رحاب قوله تعالى: ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) ﴾ [طه: ١٢٣ - ١٢٥].

أقدم ذلك الكتاب لكل من تسيطر عليه شهواته وتبعده عن طريق الخير والحب والجمال، إلى كل من يصارع تلك الشهوات ويريد بصدق ويقين وإخلاص أن يشفى الله صدره من ذلك الصراع ويهبه برد اليقين، إلى كل مجتمع يريد أن يتجه فى طريق النور، حيث التقدم والرقى والعدل والحضارة الأصيلة، ويتحرر من قيد العبودية للشهوات التى توردة موارد التهلكة ﴿ وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

إلى هؤلاء جميعًا أقدم ذلك الكتاب ونحن نعيش فى رحاب تلك الآيات النورانيات التى تضئ لنا حياتنا الدنيوية والأخروية، تلك الآيات التى نزل بها الروح الأمين على من بعثه الله رحمة للعالمين لتكون الهدى المبين لكل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد من عباد الله المؤمنين.

فلنرهف أسماعنا ولتوقظ قلوبنا ونحن نستمع لقول الرحمن الرحيم: ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا (١٧) ﴾ [الكهف: ١٧]، ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٠١) ﴾ [آل عمران: ١٠١]، ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ (٤٠) ﴾ [النور: ٤٠]، ﴿ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ (١٨) ﴾ [الحج: ١٨]، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) ﴾

[يونس: ٥٧]، ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) ﴾ [يونس: ٥٨].

هذا ونسأل الله أن يجعله خالصًا لوجهه وأن ينفع به قارئيه، فالعلم كالغيث ينزل على القلوب فيجلو صدءها وعلى العقول فيضئ جنباتها والله المستعان وحسبنا الله ونعم الوكيل.

تعريف الشهوات وأنواعها

تعريفها:

الشهوات واحدها شهوة: هو رغبة النفس فى الحصول على كل ما تتصور أنه فيه إشباع لها أو متعة، والمراد بها المشتهيات كما يقال هذا الطعام شهوة فلان أى ما يشتهيه.

والنفس البشرية قد تبلغ شأوًا بعيدًا فى ذلك الاشتهاء وكلما أطلق لها العنان تمادت فى طلب المزيد مما قد يؤدى بالإنسان إلى التهلكة لأنه يجاوز الحد ويخرج عن طريق الجادة.

فعلى الإنسان أن يكبح جماح شهواته ويصل بنفسه إلى حد القناعة والرضا:

والنفس راغبة إن رغبتها
وإن ترد إلى قليل تقنع

ومعنى هذا أن تلك الرغبة يجب أن تقيد بسياج منيع من العقل لأنها وقود الحياة الدنيا فمن استكثر منها ركن واستراح إلى دنياه وباع بها أخراه، فالإنسان روح وجسد، ومطلوب منه أن يرتقى بروحه إلى المدارج العليا فيعطيها زادها من القرآن والسنة المطهرة وأعمال البر المتنوعة من صلاة وصيام وزكاة وصلة الأرحام وقول الصدق والرفق واللين والحلم فى المعاملة والوفاء بالعقود و.... إلخ.

أما الجسد فيكفيه القليل من ماديات الحياة ليقيم أوده وتقنع نفسه ولا تطغى وتأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر وتكون عونًا له على أمردينه ودنياه، أما إذا اشتغل بعالم جسده عن عالم روحه تخلفت به نفسه عن ركب الإيمان و

وطغيانها وعنفوانها مثل الحصان الجامح، الذى يهيم فى كل واد ليس له رادع يردعه، ولا هدف يسعى إليه ولا طريق محدد يرغب فى اجتيازه، وهذا والعياذ بالله هو الشقاء بعينه والمعيشة الضنك والخسران المبين، فالشهوات بلا شك مدخل إلى النار:

رُوِى عن الصادق المعصوم أنه قال:

«حُفّت النار بالشهوات وحُفّت الجنة بالمكاره».

وتفسير ذلك قوله ﷺ فى حديث آخر:

«إن الله تبارك وتعالى خلق النار، فقال لجبريل: «اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها، فحفها بالشهوات، ثم قال: اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها فقال: وعزتك لقد خشيت ألا يبقى أحد إلا دخلها. وخلق الجنة فقال لجبريل: اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها، فحفها بالمكاره ثم قال: اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها فقال: وعزتك لقد خشيت ألا يدخلها أحد».

فمن ترك ما يهوى قلبه وتشتهيه نفسه مما كره ربه عز وجل فقد احتجب عن النار واستوجب الحلول فى جوار الله، ولما كانت الأعمال التى أمر الله عز وجل بها وندب إليها أكثرها مملٌ للقلب مُتعب للجوارح، وذلك كريه فى الطبع، ثقيل على النفس، فإن الله العليم بخلقه وبما يصلحهم علم من هذا العبد من قبل أن يخلقه، أنه إذا طبعه على حب ما وافقه ويغض ما خالفه، فهاجت لذلك شهواته ونازعته إلى ذلك نفسه إلا أن يخلق له عذابًا أليمًا ثم يتهدده به ولن يتحمل ما يكره إلا أن يخلق له نعيمًا مقيمًا، ثم يرجيه ذلك النعيم وتعده إياه، فخلقهما جميعًا لعلمه بخلقه وما أراد من كرامة أوليائه وهوان أعدائه.

ولذلك فإن هذا العبد الضعيف لن يسمح قلبه بترك الشهوات وتحمل المكاره إلا بتخوف ورجاء لما ترجى. فخوف عباده وتهددهم، ورجاهم ووعدهم ليخوفوا أنفسهم ويرجوها فيخافوه ويرجوه.

وهكذا وصف الله الذين فهموا ذلك عنه وخافوه فقال عز وجل:

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٤١) ﴾

[النازعات: ٤٠، ٤١].

فأخبر سبحانه وتعالى أنه لما خاف ربه نهى النفس عن الهوى، ...
وجانب ما نهاه عنه كما وصفهم بقوله تعالى:

﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤) ﴾ [إبراهيم: ١٤]

حقًا إن الشهوة هى نازع نفسى قوى يمتزج بكيان الإنسان ومتطلباته فى الحياة واليسير منها ضرورى لمواصلة مسيرة الوجود البشرى على وجه الأرض أما الإفراط فيها فهو أساس الصراع كله منذ بدء الخليقة حتى يومنا هذا: فالصراع داخل الأسرة نتيجة شهوات الطعام والملبس والزينة ورغبات النفس المختلفة.

والصراع بين الدول نتيجة شهوة المال بأنواعه المختلفة والرغبة فى السيطرة واستغلال خيرات الآخرين.

وما جاءت الرسل وتتابعت الرسالات إلا لمعالجة تلك الرغبات التى خلقها الله فى الإنسان ابتلاءً وامتحانًا له وصقلاً لإرادته فى كبت حاجات نفسه المتنوعة وإطلاق العنان لعقله يتفكر به فى ملكوت السماوات والأرض ليقر بعظمة الخالق ويخضع له عبدًا مخلصًا مؤمنًا بدوره الحقيقى فى الحياة، فهو ليس حيوانًا يسعى إلى إشباع غرائزه ويبذل فى سبيل ذلك الجهد والمال والعمر، وإنما خلقه الله ليعمر الكون بفكره وجهده وينشد الأمن والعدل والرخاء ويحارب الجهل والظلم والعدوان.

خلقه الله ليجاهد نفسه الأمارة بالسوء ويشحذ عزيمته فى مواجهة شدائد الحياة وصعوبتها وتلك هى الحياة الحقيقية.

أما حياة الرغد والملذات وإشباع الشهوات فهو الموت بعينه لأنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه **﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) ﴾** [الأعراف: ١٧٦].

إن آيات الله البينات هى غذاء الروح والعقل والنور المبين الذى يدخل الصدور فيبعث الحياة بالنفس البشرية ويعالج أمراضها التى تتمثل فى رغبات لا تنتهى كلما أشبع لها الإنسان رغبة تقول: هل من مزيد؟ فهى تقوده إلى الهاوية بلا شك إذا أطلقنا لها العنان وتقوده إلى ظلمات بعضها فوق بعض:

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢)﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وهل هناك ظلمات أشد على الإنسان من سجن النفس تطالبه برغباتها وتلح عليه وهو لا يستطيع منها فكاكًا، وكيف السبيل إلى ذلك وقد أسلم لها قياده وأصبح أسيرها وهى أعدى أعدائه ولم يكبلها بسياج الشرع فكبلته هى بسياج الشهوات ويا له من سياج تدور فى إطاره البشرية العمياء تتخبط فى ظلمات الضلالة وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥)﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٥].

فاللهم اجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه وممن استنار بنور الإسلام فتأدبت نفسه وقنعت وماتت شهواتها كما قال الحبيب المصطفى:

«إن النور إذا دخل القلب انشرح له الصدر وانفسح. قيل يا رسول الله: هل لذلك من علامة يُعرف بها؟ قال: نعم: التجافى عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله».

وعند ذلك تموت شهواته وتذهب دواعى نفسه فلا تأمره بسوء ولا تطالبه بارتكاب منهى ولا يكون همه إلا المسارعة إلى الخيرات والمبادرة إلى اغتنام الساعات والأوقات وذلك لاستشعاره حلول الأجل وفوات صالح العمل.

أنواع الشهوات:

إن تعداد أنواع الشهوات على سبيل الحصر هو من الصعوبة بمكان لأنه يتصل برغبات النفس المتشابكة المعقدة.

ولذلك لا نجد خيرًا من القرآن الكريم فى تفصيل الشهوات على سبيل الإجمال فى بنود رئيسية مع ما يتبع تلك البنود من عناصر فرعية متعددة.

فالله سبحانه وتعالى هو خالق النفس البشرية ومالكها وهو الحكيم الخبير بمسالكها ومدارجها وقاصيها ودانيها وسرها وعلانيتها، يقول جل شأنه فى كتابه الكريم:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤)﴾

[آل عمران: ١٤].

ومعنى تزيين حب الشهوات للناس أن حبها مستحسن لديهم لا يرون فيه قبحًا ولا غضاضة، ومن ثم لا يكادون يرجعون عنه، وهذا أقصى مراتب الحب وصاحبه قلما يفطن لقبحه أو ضرره إن كان قبيحًا أو ضارًا ولا يحب أن يرجع عنه وإن تأذى به.

وقد يحب الإنسان شيئًا وهو يراه سيئًا لا حسنًا، وضارًا لا نافعًا، ويود لذلك لو لم يحبه؛ كما يحب بعض الناس شراب الدخان على تأذيهم منه، ومن أحب شيئًا ولم يزين له يوشك أن يرجع عنه يومًا ما، ومن زُين له حبه فلا يكاد يرجع عنه. أى أن الله فطر الناس على حب الشهوات المبينة فى الآية كنوع من الابتلاء لهم، فمن ركن إليها وفرح بها كانت له الشغل الشاغل عن جهاده فى سبيل التقرب من ربه وتغلبت ماديته على نورانيته.

أما من جاهد فى الله حق جهاده ولم تشغله تلك الشهوات عن طريق الوصول إلى ربه فأولئك لهم الدرجات العلا من الجنة لأنهم اجتازوا اختبار ربهم بجدارة:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧)﴾ [الكهف: ٧].

ونتكلم بالترتيب عن هذه المشتهيات الستة التى ملأت قلوب الناس حبًا وشغلتهم عن دينهم وكانت محل ابتلائهم فى حياتهم الدنيا:

١ - النساء:

وهن موضع الرغبة ومطمح الأنظار، وإليهن تسكن النفوس، كما قال تعالى:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً (٢١)﴾ [الروم: ٢١]

وعليهن ينفق أكثر ما يكسب الرجال، فهم القوامون عليهن لقوتهم وقدرتهم على حمايتهن.

وهذه الشهوة إذا التزمت بشرع الله كانت خيرًا وبركة على المجتمع لأن فيها إقامة

الأسرة الإسلامية على دعائم متينة من المودة والرحمة والألفة. ولا عجب إذا كان من أول الأوامر التى صدرت من الله تعالى إلى آدم قوله تعالى:

﴿ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة (١٩)﴾ [الأعراف: ١٩].

ولم يقل له: اسكن وحدك الجنة أو يقل له: اسكن أنت وعشيقتك الجنة إنما قال له اسكن أنت وزوجك، فالإسلام دين الحق دعا إلى الزواج ورغب فيه وحث عليه حتى لا يكلف الناس بما لا يطيقون. فغريزة الجنس من الدوافع الفطرية التى إذا توترت أتعبت وإذا ترك لها العنان دمرت وأهلكت، وإذا ثارت أفزعت.

ولذلك فالإسلام بشرعه الحنيف لا يرضى للمسلمين الزنا فهو وقوع فى الرذيلة وهبوط إلى مستنقع آسن، وقد قرن الله سبحانه وتعالى مفسدة الزنا بالشرك وقتل النفس وجعل جزاء ذلك الخلود فى النار بالشرك وقتل النفس وجعل جزاء ذلك الخلود فى النار فى العذاب المضاعف المهين ما لم يرفع العبد موجب ذلك بالتوبة والإيمان والعمل الصالح لأن الإسلام يهدف إلى بناء النفوس على الطهر والنقاء وإقامة صرح الأخلاق على الوفاء والصفاء، وانساب كالبحر الطهور يغسل وجه الأرض من أرجاسها وأدناسها وأنجاسها.

وقد قدَّم الله حب النساء على حب الأولاد مع أن حبهن قد يزول وحب الأولاد لا يزول لأن حب الولد لا يعظم فيه الغلو والإسراف كحب المرأة، فكم من رجل جنى حبه للمرأة على أولاده، فأهملوا تربيتهم وحرموهم سعة الرزق، وكم من غنى عزيز يعيش أولاده عيشة الفقر والذل بسبب حب والدهم لغير أمهم، فهو يفعل ذلك للتقرب وابتغاء الزلفى إليها فشغله الهوى عن الحق وهذا أكبر خطورة على كيان المجتمعات.

٢ - البنون:

والمراد بهم الأولاد مطلقًا كما قال تعالى:

﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة (١٥)﴾ [التغابن: ١٥].

وفى الحديث الشريف:

«الولد مجبنة مبخلة».

والعلة فى حب الزوجة وحب الولد واحدة وهى تسلسل النسل وبقاء النوع، أى

غريزة حب الخلود: ﴿هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى (١٢٠)﴾ [طه: ١٢٠].

وهى حكمة مطَّردة فى غير الإنسان من الحيوانات الأخرى، وحب البنين أقوى من حب البنات لأسباب كثيرة منها: - أنهم عمود النسب الذى به تتصل سلسلة النسل، وبه يبقى ما يحرص الإنسان عليه من بقاء الذكر وحسن الأحدوثة بين الناس.

- أمل الوالد فى كفالتهم له حين الحاجة إليه لضعف أو كبر.

- أنه يرجى بهم من الشرف ما لا يرجى من الإناث كنبوغ فى علم أو عمل أو رياسة أو قيادة جيش للدفاع عن الوطن وحفظ كيان الأمة.

- الشعور بأن الأنثى حين الكبر تنفصل عن عشيرتها وتتصل بعشيرة أخرى.

وغريزة حب الأولاد إذا أحيطت بسياج الشرع المتين تعتبر بلا شك غريزة محمودة لأنها تجعل الإنسان يتحمل أعباء الأسرة وتربية الأبناء بصدر منشرح يعينُه على أداء مهامه الأخرى فى الحياة بعزيمة وطمأنينة إلى ما يدخره الله له فى الدار الآخرة.

أما إذا زادت تلك الغريزة عن حدها المحمود، وتحولت من جعل الأولاد وسيلة لمرضاة الله إلى جعلهم هدفًا فى الحياة يسعون فى دروبها من أجلهم ويمشون الهوينا فى ذكر الله وطاعته، فهنا الطاعة الكبرى حيث يتخاصم الناس ويتقاتلون من أجل أولادهم وليس لجعل كلمة الله هى العليا، وينفقون أموالهم ويبذلون جهدهم ويضيعون أوقاتهم من أجل أولادهم وليس لصلة الأرحام أو تدعيم أركان مجتمعهم، وهنا يكونون قد تحولوا من عبادة الله إلى عبادة الأولاد، فحينما تتحول الوسيلة إلى غاية تنقلب موازين الحياة ويتبدل شرع الله.

وهذا ما يحذرنا الله منه أشد التحذير فى آيات واضحات بينات فيقول جل شأنه:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون (٩)﴾ [المنافقون: ٩].

﴿يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم (١٤)﴾ [التغابن: ١٤].

وهل هناك عداوة أشد من الفتنة فى الدين؟.

وهل إبليس اللعين عدو لدود إلا لأنه يقعد لنا على الصراط المستقيم ويضلنا عن ذكر الله؟.

فإذا جرى من ابن آدم مجرى الدم وأيقظ فيه شهوة حب الأبناء بما يزيد عن الحد فقد أخرجه عن جادة الحق وباعد بينه وبين مبتغاه فى مرضاة الله ووقف الأبناء حجر عثرة فى سبيل وصول والدهم إلى الجنة بانشغاله بهم واقتصار حياته عليهم وهنا أصبح الأبناء أعداء وكذلك الزوجة إذا قامت بنفس الدور والعياذ بالله.

وقال تعالى أيضا على طريق التحذير من طغيان شهوة حب الأبناء:

﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (٣٧) ﴾ [سبأ: ٣٧].

﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣) ﴾ [الممتحنة: ٣].

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨) ﴾ [الأنفال: ٢٨].

﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤) ﴾ [التوبة: ٢٤].

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥) ﴾ [التوبة: ٥٥].

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١٦) ﴾ [آل عمران: ١١٦].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٣٣) ﴾

[لقمان: ٣٣].

وبعد استعراض تلك الآيات النورانيات التى تضئ جوانب حياتنا وتسدد خطانا على طريق الإيمان. فاعلم أخى المسلم أن أولادكم فتنة عظمى ولا يغرنك الشيطان بالانشغال

بهم بكلمات حق يُراد بها باطل.

مثل أنهم أمانة فى عنقك، وأن كل ما تنفقه عليهم لك به أجر عند الله، وكذلك كل ما تتحمله من مشقة فى سبيلهم.

نعم هذا حق، ولكنه إذا جاوز الحد بأن قصرت حياتك على تلك الأمانة وأغلقت نفسك عليهم وخصصتهم بكل ما تملك دون أن يكون فى أموالك حق للسائل والمحروم، فاعلم أنك بذلك قد خرجت عن منهج الله وأعرضت عن ذكره فاستحققت أن يكون لك معيشة ضنكا، وحق عليك قول الصادق المعصوم:

«من أحب شيئا عُذب به».

فسيصبح نفس هؤلاء الأبناء هم مصدر شقائك وتعاستك ولن تجنى منهم أى بر لأنك لم تقم ببناء حياتك على أساس من تقوى الله بل أقمته على شفا جرف هارٍ من الشهوات فاستحق أن ينهار بك وعندها تجنى الحسرة والندامة ولات ساعة مندم، وما أجمل ما دعا به إبراهيم الخليل ربه:

﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) ﴾ [الشعراء: ٨٧ - ٨٩].

فاللهم لا تجعل الدنيا تشغلنا بزخرفها وزينتها ومتاعها واجعل ذلك فى أيدينا وليس فى قلوبنا، فإنك على كل شىء قدير، وبالإجابة جدير.

٣ - القناطير المقنطرة من الذهب والفضة:

والعرب تريد بالقنطار المال الكثير، والمقنطرة مأخوذة منه على سبيل التوكيد، وقد جرت عادتهم بأن يصفوا الشىء بما يشتق منه مبالغة كما قالوا: ألوف مؤلفة، وظل ظليل.

وهذا التعبير يشعر بالكثرة التى تكون مظنة الافتتان، والتى تشغل القلب للتمتع بها وتستغرق فى تدبيرها الوقت الكثير حتى لا يبقى بعد ذلك منفذ للشعور بالحاجة إلى نصرة الحق والاستعداد لأعمال الآخرة. ومن ثم كان الأغنياء فى كل الأمم لدى بعثة الرسل أول الكافرين بهم المستكبرين عن تلبية دعوتهم، وإن أجابوها وآمنوا بها، فهم أقل الناس عملا وأكثرهم بُعداً عن هدى الدين.

انظروا إلى قوله تعالى:

﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا (١١) ﴾

[الفتح: ١١].

وحب المال مما أودع فى غرائز البشر واختلط بلحمهم ودمهم، وسر هذا أنه وسيلة إلى جلب الرغائب وسبيل إلى نيل اللذات والشهوات، ورغبات الإنسان غير محدودة، ولذاته لا عدَّ لها ولا حصر، وكلما حصل على لذة طلب المزيد منها، وما وصل إلى غاية فى جمع المال إلا تاقت نفسه إلى ما فوقها، حتى لقد يبلغ به النهم فى جمعه أن ينسى أن المال وسيلة لا غاية، فيفتن فى الوصول إليه الفتون المختلفة والطرق التى تعن له، ولا يبالى أمن حلال كسب أم من حرام ؟

- روى البخارى ومسلم عن ابن عباس قوله ﷺ:

«لو كان لابن آدم واديان من ذهب لتمنى أن يكون لهما ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب».

ولقد أعمت فتنة المال كثيرًا من الناس فشغلتهم عن حقوق الله وحقوق الأمة والوطن، بل عن حقوق من يعاملهم، وأحيانًا عن حقوق بيوتهم وعيالهم بل عن أنفسهم.

- عن مالك الأشعرى أنه سمع رسول الله ﷺ يقول:

«لا أخاف على أمتى إلا ثلاث خلال: أن يكثر لهم المال فيتحاسدوا فيقتتلوا، وأن يفتح لهم الكتاب فيأخذه المؤمن يبتغى تأويله ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ (٧) ﴾ [آل عمران: ٧] **وأن يزداد علمهم فيضيعوه ولا يسألوا عنه».**

٤ - الخيل المسوَّمة:

التى ترعى فى الأودية، وكل من الخيل الراعية التى تقتنى للتجارة والمُعَلَّمة المهمة التى يقتنيها العظماء والأغنياء من المتاع الذى يتنافس فيه الناس ويتفاخرون، حتى لقد يتغالى بعضهم فى ذلك إلى حد هو أشبه بالجنون، وهذا ما يشبه فى عصرنا هذا التفاخر بالسيارات.

٥ - الأنعام:

وهى مال أهل البادية ومنها تكون ثروتهم ومعايشهم ومرافقهم وبها تفاخرهم وتكاثرهم، وهى ما تمثل الثروة الحيوانية فى كل أمة.

٦ - الحرث:

وعليه قوام حياة الإنسان والحيوان فى البدو والحضر والحاجة إليه أشد من الحاجة إلى الأنواع السالفة، والانتفاع به أتم منها لأنه أخذ عنها لأنه لما عمَّ الارتفاق به كانت زينته فى القلوب أقل وقلَّما يكون الانتفاع به صادًا عن الاستعداد لأعمال الآخرة أو مانعًا من نصرة الحق.

وهناك ما هو أعم نفعًا وأعظم فائدة فى الحياة وهو الضوء والهواء، فلا يستغنى عنهما حى من الأحياء ومع ذلك قلَّما يلتفت الإنسان إليهما ولا يفكر فى غبطته بهما.

والملاحظ فى تلك الشهوات الست أن اثنين منهما يتعلقان بالنساء والبنين، والأربعة الباقية تتعلق بالأموال سواء كانت سائلة أو عينية وذلك لخطورة المال فى حياة البشرية وأهميته فى قيام الحياة وتقدمها ورخاء الإنسان ورفاهيته.

والأعظم من ذلك أن المال هو الوسيلة الأساسية فى تحقيق جميع شهوات الإنسان الأخرى.

فالمال نعمة إذا اتجه صوب الفضيلة، ونقمة إذا صوِّب تجاه الرذيلة.

وهو دعامة الأمة ونصرتها وكرامتها وعزتها إذا التزم بمنهج الله ومصارفه التى حددها له من جهاد فى سبيل الحق وتحقيق التكافل الاجتماعى بين المسلمين والإنفاق بالعدل على ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، وأداء الحقوق والأمانات إلى أصحابها وعدم أكل الأموال بالباطل: من ربا وسرقة وغش ورشوة وهضم الحقوق.

وكل هذا يوضحه قول الحبيب المصطفى فى كلمات موجزات بليغات تكاد جوانبها تضئ نورًا وطهرًا وعفافًا فى كيفية تداول الأموال فى المجتمع المسلم: يقول عليه الصلاة والسلام:

«إن هذا المال خضر حلو، ونعم صاحب المسلم هو، لمن أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل، وإن من يأخذه بغير حقه كمن يأكل ولا يشبع، ويكون عليه شهيدًا يوم القيامة».

ويعيد علينا نفس القول فى حديث آخر، فيقول صلوات ربى وسلامه عليه:

«إن هذا المال خضر حلو فمن أخذه بسخاوة نفس، بورك له فيه ومن أخذه بإشراف نفس - أى بطمع وشَرَه - لم يُبارك له فيه وكان كالذى يأكل ولا يشبع»!!!

إن سخاوة النفس هنا تعنى القناعة والتعفف والشرف: شرف الوسيلة وشرف القصد، وإن إشراف النفس يعنى التهالك الشرِه والتهافت المرذول.

وهكذا فالمعلم العظيم يريد أن يكبل جماح شهوة المال بلجام الشرع الحنيف فيبدأ بخلق «ضمير المال» فى نفس الإنسان ويعلمهم أصول تداول الأموال خلال زحفهم وعدوهم فى عالم التحصيل والارتزاق، فيقول أيضا - ﷺ -:

«يا أيها الناس، اتقوا الله وأجملوا فى الطلب فإن نفساً لن تموت حتى تستوفى رزقها وإن أبطأ عنها، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب، خذوا ما حَلَّ ودعوا ما حَرُم، ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تأخذوه بمعصية الله، فإن الله لا يُنال ما عنده إلا بطاعته».

إن التطلع إلى تعاليم الإسلام فى علاج الشهوات ليجعل المرء مأخوذاً بعظمة الحكيم الخبير اللطيف بعباده ويملأه يقيناً بأن سيدنا محمد هو رسول الله إلى الناس كافة ومعلم البشرية وأستاذها الأعظم ليخرجها من الظلمات إلى النور.

فتعال معى أخى المسلم لنغترف من فيض العلىّ القدير ونتهل من الأنوار القدسية ما يخرجنا من الظلمات إلى النور، من ضيق النفس وظلماتها وشهواتها إلى مدارج الروح وانطلاق الفكر إلى آفاق واسعة تمتد إلى ملكوت السماوات والأرض.

فلنتعرف على الخطوات التفصيلية للمنهج الإسلامى فى معالجة الشهوات على أن نتناول ذلك على ثلاث مراحل متتابعة.

١ - المعالجة الإسلامية لشهوة النساء.

٢ - المعالجة الإسلامية لشهوة البنين.

٣ - المعالجة الإسلامية لشهوة المال بما تشمله تلك الكلمة من الشهوات الأربع:

(القناطير المقنطرة من الذهب والفضة - الخيل المسوَّمة - الأنعام - الحرث).

أولا: المعالجة الإسلامية
لشهوة النساء

إن شهوة النساء ناتجة عن الغريزة الجنسية التى رُكبت فى الإنسان وهى ضرورية بلا شك للتزاوج والتناسل وعمارة الكون.

وهى أقوى الغرائز على الإطلاق وأخطرها إذا لم تُحاط بسياج منيع من شرع الله يحميها ويهذبها ويوجهها الوجهة السليمة لصالح المجتمع المسلم.

وكلمة غريزة من الفعل غرز أى أنها مغروزة غرزاً فى الإنسان تمتد جذورها فى أعماقه لا يستطيع منها فكاكًا ثم تتفرع تلك الجذور إلى ساق وأغصان وفروع وثمار، وهنا يقف الإسلام موقفًا حكيمًا من تلك الشجرة إذ يرويها بماء الحياء والطهر والعفاف ويهذب فروعها وأوراقها حتى تؤتى أكلها بما يُرضى الله ورسوله.

ولذلك فإن وضع الحدود والضوابط الدقيقة فى لقاء الرجال بالنساء وطريقة تعاملهم واختلاطهم حتى لا تضرب الفوضى أطنابها فى المجتمع المسلم فمعظم النار من مستصغر الشرر. والمتأمل لآيات الله يجد أن معظم الحدود قد ختمها الله بقوله تعالى:

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا (٢٢٩) ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

إلا الزنا فإنه قال جل شأنه:

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٢) ﴾ [الإسراء: ٣٢]

وذلك نظراً لخطورة الموقف والنتائج المترتبة عليه، فمجرد القُرب من حدود الزنا حتى عن بُعد موجب للوقوع فيه، لأنه أمر يتعلق بالوجدان وبمشاعر تملك على المرء كيانه فلا يستطيع دفعها، والنفس أمارة بالسوء ونوازع الهوى مثل أمواج البحر العاتية لا يمكن مصارعتها فهى تحيط به من كل جانب وتدفعه إلى السقوط فى الهاوية ووقتها لا يلومنَّ الإنسان إلا نفسه لأنه لم يلتزم بتعاليم ربه التى تقوده إلى جانب الحيطة والأمان وانساق وراء أمانى خادعة وأكاذيب مضللة ومجتمعات فاسدة حتى مال عن منهج الحق ميلاً عظيمًا وصار على شفا حفرة من النار أو على شفا جرف هارٍ أوشك أن ينهار به:

﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا (٢٨) ﴾ [النساء: ٢٧، ٢٨].

نعم، إنها شهادة حق من حكيم خبير، إن الإنسان ضعيف بما رُكِّب فيه من شهوات وأى اجتراء على حدود الله أو جسارة فى الباطل تدعو إلى الحرية والاختلاط والمساواة، فهذا معناه دعوة خفية لايقاظ الشهوات وإخراجها من عقالها لترتع فى غيها وضلالها، فكيف نتجرأ على حدود الله وهو الذى وضعها لنا ليخفف عنا وطأة الشهوات وعنفوانها وما تجره من مفاسد وويلات نحن فى غنى عنها؟ كيف نستعير منهج الشياطين ونتبعه، ونترك منهج الرحمن الرحيم الذى علم ما فينا من ضعف قبل أن يخلقنا فأراد أن يرحمنا من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا؟

ومع ذلك فإن المولى عزَّ وجل لم يترك لنا الحبل على الغارب ليتخذ كل إنسان إلهه هواه بل حذَّر وأنذر وجعل عاقبة الزنا من أشد العقوبات وأقصاها سواء فى الدنيا أو الآخرة حتى تنغص عيش اللاهين العاصين وتكون نذيراً يوقظ أجراس الخطر تطرق آذانهم وتوقظ ضمائرهم وتبصرهم بما هم مقدمين عليه من أهوال تشيب لها الولدان.

- عن عطاء فى تفسير قوله تعالى عن جهنم:

﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ (٤٤) ﴾ [الحجر: ٤٤].

قال: أشد تلك الأبواب غمًا وحرًا وكربًا وأنتنها ريحًا للزناة الذين ركبوا الزنا بعد العلم.

وإليك أخى المسلم الآيات القرآنية الداعية إلى حفظ الفرج.

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) ﴾ [المؤمنون: ١ - ٧].

وأى عدوان أشد من الاعتداء على العرض.

فالمسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه. كما قال الصادق المعصوم.

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١) ﴾ [النور: ٣٠، ٣١].

أرأيت أخى المسلم تلك الخطوط الدقيقة والمنهج الواضح لكل من المسلم والمسلمة لتحقيق الطهر والعفاف وامتد وكان التوجيه للنساء أكثر لأنهن مصدر الجاذبية بالنسبة للرجال وعليهن يقع العاتق الأول فى سد منافذ الشيطان الذى يثير الرغبة بين الجنسين، وهى مسئولية بلا شك جسيمة، وتكتمل ملامح تلك التعليمات فى سورة الأحزاب حيث يقول المولى عز وجل مخاطبًا نساء النبى وكل امرأة مسلمة تنتهج نهجهن وتسير معهن على درب الإيمان.

﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) ﴾ [الأحزاب: ٣٠ - ٣٣].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥٩) ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

الطريق الموصلة إلى حفظ الفرج

والملاحظ من تلك الآيات البينات أن المولى تبارك اسمه قد رسم طريقًا واضح المعالم لحفظ الفرج ولم يتركها دعوة مفتوحة لاجتهاد المجتهدين بل هو منهج راسخ على أُسس

متينة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها. تتمثل معالم ذلك الطريق في النقاط التالية:

١ - غض البصر:

أمر الله تعالى نبيه أن يأمر المؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم وأن يعرفهم أنه مشاهد لأعمالهم مطلع عليهم:

﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩) ﴾ [غافر: ١٩].

ولما كان مبدأ الفاحشة عمومًا من قبل البصر جعل المولى - جلّ ذكره - الأمر بغضه مقدمًا على حفظ الفرج فإن كل الحوادث مبدؤها من النظر كما أن معظم النار مبدؤها من مستصغر الشرر: تكون نظرة ثم تكون خطرة ثم خطوة ثم خطيئة. ولهذا قيل: من حفظ هذه الأمور الأربعة أحرز دينه:

اللحظات والخطرات واللفظات والخطوات. فينبغي للعبد أن يكون حارس نفسه على هذه الأبواب الأربعة ويلازم الرباط على ثغورها، فمنها يدخل عليه العدو، فيجوس خلال الديار ويتبر ما علا تتبيرا.

قال النبي ﷺ:

«يا علي: لا تتبع النظرة النظرة فإنما لك الأولى وليست لك الثانية».

وقال ﷺ:

«النظرة سهم مسموم من سهام إبليس فمن غض بصره عن محاسن امرأة أورث الله قلبه حلاوة العبادة إلى يوم القيامة».

وقال:

«غضوا أبصاركم واحفظوا فروجكم».

رواه أحمد من حديث: **«اضمنوا لي ستًا من أنفسكم...».**

وقال:

«إياكم والجلوس على الطرقات. قالوا: يا رسول الله مجالسنا ما لنا بد منها. قال: فإن كنتم لابد فاعلين فأعطوا الطريق حقه. قالوا: وما حقه؟ قال: غض البصر وكف الأذى ورد

السلام».

والنظر أصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان فإن النظرة تولد الخطرة ثم تولد الخطرة فكرة، ثم تولد الفكرة شهوة، ثم تولد الشهوة إرادة، ثم تقوى فتصير عزيمة جازمة فيقع الفعل ولابد، ما لم يمنع منه مانع ولهذا قيل: الصبر على غض البصر أيسر من الصبر على ألم ما بعده وهذا من لطف الله بنا فهو يحرم اليسير ليمنع عنا بلاء الكثير.

كل الحوادث مبدؤها من النظر
ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة بلغت في قلب صاحبها
كمبلغ السهم بين القوس والوتر
والعبد ما دام ذا طرف يقلبه
في أعين الغيد موقوف على الخطر
يسر مقلته ما ضر مهجته
لا مرحبًا بسرور عاد بالضرر

فاحفظ نظرك أخي المسلم والتزم بتعاليم دينك تحمي نفسك من الحسرات والزفرات والحرقات وتدفع نفسك إلى طريق لست قادراً عليه ولا صابراً عنه وهذا من أعظم أنواع العذاب، فاللهم احفظنا ووفقنا إلى مرضاتك واتباع سبيلك معافين من كل داء.

* * *

٢ - تحريم كل ما يدعو للفتنة والإغراء:

إن الله عز وجل قد فرض الحجاب على المرأة المسلمة حفاظًا على عفة الرجال الذين تقع أبصارهم عليها وتخفيفًا عن كاهلهم بما تقع عليه أبصارهم من مغريات النساء وفتنتهن حيث تثور شهواتهم وغريزتهم الجنسية وهي كما قلنا من أقوى الغرائز ويحتاج كبتها إلى مجهود كبير يمكن توفيره إذا أغلقت منابع الفتنة والتزمت النساء بتعاليم الشرع. فالإسلام يريد توجيه الطاقات البشرية إلى ما يخدم المجتمع المسلم ويعود عليه

بالنفع والرخاء أما أن يضيع تلك الطاقات هباءً بين إثارة وكبت، بين رغبة وحرمان، بين زفرات وحرقات فهذا ما يأباه الشرع الحكيم لأن طاقة البشر أغلى ما فى الوجود ولابد أن توجه الوجهة السليمة التى أرادها الله لها فى عمارة الكون وإرساء مبادئ الحق والعدل.

ولذلك فالإسلام حرم على النساء كل ما يدعو إلى الفتنة والإغراء ليس فى الملبس فقط ولكن فى طريقة الكلام والمشى والخروج والخلوة بأجنبى (غير ذى محرم).

روى عن عائشة رضى الله عنها قالت بينما رسول الله ﷺ جالس فى المسجد إذ دخلت امرأة من مُزينة ترفل فى زينة لها فى المسجد فقال النبى: **«يا أيها الناس انهوا نساءكم عن لبس الزينة والتبختر فى المسجد فإن بنى إسرائيل لم يلعنوا حتى لبس نساؤهم الزينة وتبختروا فى المساجد»** [رواه ابن ماجة].

- وعن عقبة بن عامر رضى الله عنه أن رسول لله ﷺ قال:

«إياكم والدخول على النساء» فقال رجل من الأنصار: أفرأيت الحمو: قال: «الحمو الموت» ومعنى الحمو الموت: أى الخوف منه أكثر من غيره والشر يتوقع منه والفتنة أكثر لتمكنه من الوصول إلى المرأة والخلوة من غير أن ينكر عليه.

- وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال:

«لا يخلون أحدكم بامرأة إلا مع ذى محرم».

- وروى عن أبى أمامة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«إياك والخلوة بالنساء والذى نفسى بيده ما خلا رجل بامرأة إلا ودخل الشيطان بينهما، ولأن يزحَم رجل خنزيراً متلطخًا بطين أو حمأة خير له من أن يزحم منكبه منكب امرأة لا تحل له».

- وعن معقل بن يسار رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«لأن يُطعن فى رأس أحدكم بمخيط من حديد خير له من أن يمس امرأة لا تحل له».

كما نهى الإسلام المرأة عن التعطر والتطيب عند خروجها من بيتها فيشم الرجال طيبها.

قال النبى ﷺ:

«كل عين زانية والمرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس فهى كذا وكذا». يعنى زانية.

- وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه لقى امرأة شم منها ريح الطيب ولذيلها لى عصار فقال: يا أمة الجبار جئت من المسجد؟ قالت: نعم، قال لها: تطيبت؟ فقالت: نعم. قال: إنى سمعت أبا القاسم ﷺ يقول: **«لا يقبل الله صلاة امرأة طيبت لهذا المسجد حتى ترجع فتغتسل غسلها من الجنابة»**.

ويمكن أن نوجز القول فى هذا المجال بقول الصادق المعصوم عن أبى سعيد رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«ما من صباح إلا وملكان يناديان: ويل للرجال من النساء، وويل للنساء من الرجال».

حقًا فالمرأة فى حياة الإنسان أخطر ابتلاء دنيوى على الإطلاق والعكس صحيح. وذلك لأن جميع الآثام التى حظرها الله تعالى على عباده ليس بينها وبين الإنسان أى انسجام فطرى، فالظلم بأنواعه محرم ويعين الإنسان على تجنبه أن الفطرة الإنسانية تشمئز منه، وشرب الخمر محرم، ويهون من أمر تحريمه أن الفطرة الإنسانية الأصيلة تعافها، وكذلك السرقة والغش والغيبة والنميمة، وبقية المحرمات الأخرى، كلها لا تتفق مع مقتضيات الفطرة السليمة، أما الغريزة الجنسية فى كل من الرجل والمرأة، فهى على الرغم من كونها تدفع إلى ارتكاب محظور يعد فى ذروة المحاذير الشرعية. إذا لم تكبل بلجام الشرع، فإنها تعتبر من أخص مستلزمات الفطرة الإنسانية وأهم متطلباتها ولا سبيل لأى إنسان ما دام إنسانًا طبيعيًا لا شذوذ فيه إلى أن ينفك عنها أو يسمو فوقها، وهكذا يتبين لنا أن الشهوة الجنسية فى كيان الإنسان أخطر ابتلاء دينى فى حياته. ولذلك فإن العلاج الإسلامى بالنسبة لسائر المعاصى يكمن فى مزيد من الابتعاد عنها والاستعلاء فوقها، أما بالنسبة لأمر الجنس خاصة فقد كان العلاج هو الارتواء منه وإمتاع الغريزة به ولكن ضمن حدود مرسومة معينة لا يتجاوزها وهى الزواج على سنة الله ورسوله.

* * *

٣ - الزواج:

إن الزواج هو العلاج الأصيل لشهوة الجنس وكل ما ذكرناه وسنذكره هو العلاج البديل، ولن يغنى الفرع عن الأصل. ولكن وضعت البدائل الأخرى فى حالة انتظار الظروف المواتية للزواج من بلوغ السن المناسبة وتوفر القدرة المالية والزوجة الصالحة، قال

رسول الله ﷺ :

«يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء».

وقد وقع الخطاب للشباب لأنهم أصحاب القوة والفتوة وهم مظنة شهوة النساء ولا ينفكون عنها غالبًا.

قال النووى: والشباب عند أصحابنا هو من بلغ ولم يجاوز ثلاثين سنة.

لذلك فقد أمرهم الحبيب المصطفى بالزواج فى حالة توفر مؤن النكاح ومن لم يستطع تلك التكاليف فعليه بالصوم ليقطع شهوته إلى أن يقضى الله أمرًا كان مفعولا.

وهذا نابع من الدستور العظيم للمسلمين وهو القرآن الكريم حيث يقول المولى عز وجل:

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٥)﴾ [النساء: ٢٥].

هذا تخفيف من الله ورحمة على المسلمين الذين لا يجدون المقدرة المالية على نكاح المحصنات المؤمنات فسهل لهم طريقًا آخر، ولكن ختم ذلك الطريق بقوله جلّ شأنه:

﴿وأن تصبروا خير لكم﴾.

لما فى زواج ما ملكت الأيمان من خوف على النشء حيث يريد للإسلام ذرية قوية تنشأ على العزة والكرامة والعراقة تقيم أركان المجتمع المسلم على دعائم متينة.

ولذلك فلابد للزواج أن يكون على أسس سليمة وإلا فالصبر على تلك الشهوة والعفة أفضل وهو ما يؤكده المولى تبارك اسمه فى سورة النور حيث يقول:

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ (٣٣)﴾ [النور: ٣٣].

والدعوة إلى العفة والطهارة مطلوبة فى حالة عدم توافر القدرة المالية أما إذا توافرت

أصبح الزواج ضرورة شرعية واجبة يفرضها عليه الإسلام.

واسمع معى إلى الهدى النبوى الشريف فى ضرورة الزواج وأهميته على طريق الحق والنور.

- روى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول:

«من أراد أن يلقى الله طاهرًا مطهرًا فليتزوج الحرائر».

- وعن أبى أيوب رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ :

«أربع من سنن المرسلين: الحناء والتعطر والسواك والنكاح».

- وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال:

«الدنيا متاع وخير متاعها امرأة تعين زوجها على الآخرة، مسكين مسكين رجلٌ لا امرأة له، مسكينة مسكينة امرأة لا زوج لها».

- وعن أبى أمامة رضى الله عنه عن النبى ﷺ: أنه كان يقول:

«ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله عز وجل خيرًا له من زوجة صالحة إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرته، وإن أقسم عليها أبرته، وإن غاب عنها نصحته فى نفسها وماله».

وعن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«من رزقه الله امرأة صالحة فقد أعانه على شطر دينه فليتق الله فى الشطر الباقى».

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«ثلاثة حق على الله عونهم: المجاهد فى سبيل الله، والمكاتب الذى يريد الأداء، والناكح الذى يريد العفاف».

- وعن أبى نُجيح رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«من كان موسرًا لأن ينكح ثم لم ينكح فليس منى».

- وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: جاء رهط إلى بيوت أزواج النبى ﷺ يسألون عن عبادة النبى ﷺ: فلما أخبروا كأنهم تقالوها فقالوا: وأين نحن من النبى ﷺ؟ قد غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال أحدهم: أما أنا فإنى أصلى الليل أبدًا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر أبدًا، وقال آخر: وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج

ابدًا. فجاء رسول الله ﷺ إليهم: فقال:

«أنتم القوم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له. لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني».

* * *

أهمية النكاح فى الإسلام

إن النكاح له أهمية عظمى فى حياة المسلمين تتمثل فى النقاط التالية:

- تلبية أمر الله بالزواج حيث قال تعالى:

﴿ وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [النور: ٣٢].

- اتباع هدى النبى الحبيب ورسل الله أجمعين حيث قال تعالى فى وصف الرسل ومدحهم:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴿٣٨﴾ ﴾ [الرعد: ٣٨].

وفى هذا موافقة محبة الله بالسعى فى تحصيل الولد لإبقاء جنس الإنسان.

والولد هو المقصود بالعقد الشرعى والتمتع البهيمى فليس فى حياة المسلم متعة بدون جهد يتمثل فى رعاية الأولاد.

- ترويح النفس وإيناسها بالمجالسة والنظر والملاعبة إراحة للقلب، وتقوية له على العبادة فإن النفس ملول وهى عن الحق نفور.

قال تعالى:

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الروم: ٢١].

- التحصن عن الشيطان وكسر التوقان ورفع غوائل الشهوة وغض البصر وحفظ الفرج: وهى من الأمور الهامة التى تشكل حصنًا حصينًا وسياجًا منيعًا يمنع المسلم من الوقوع فى الزنا، وكفى بها من هاوية تقود صاحبها إلى دركات من الجحيم الدنيوى

قبل الأخروى لا يقوى على مواجهتها فضلا عن تحملها أو دفعها.

- تفريغ القلب عن الأشغال الدنيوية من نوازع الهوى وقضاء الشهوة وبذلك يتفرغ المسلم للأشغال الأخروية.

قال ﷺ:

«لم تر للمتحابين مثل الزواج».

- مجاهدة النفس ورياضتها بالرعاية والولاية والقيام بحقوق الأهل والصبر على أخلاقهن واحتمال الأذى منهن والسعى فى إصلاحهن وإرشادهن إلى طريق الدين والاجتهاد فى كسب الحلال لأجلهن والقيام بتربيته لأولاده.

قال ﷺ:

«ما أنفقه الرجل على أهله فهو صدقة».

وقال:

«وإن الرجل ليؤجر فى اللقمة يرفعها إلى فىّ امرأته».

حقا إن المرء ليعجب من حكمة المولى عز وجل فى علاجه لغريزة الجنس فهو يقضى الشهوة ويرزق الإنسان الذرية ويثيبه على جهاده مع أسرته.

فهل ترى حكيمًا رحيمًا خبيرًا عالج أمرًا بتلك العظمة والرحمة التى تشمل جميع نواحى النفس البشرية وتؤتى ثمارًا طيبة ذكية يفوح عطرها على جوانب المجتمع المسلم، وتجعل إشباع الغريزة أمرًا يُثاب عليه المسلم ويحقق به خير دنياه وأخراه مما جعل أئمة الصحابة والتابعين يسعون إلى النكاح سعيًا ابتغاء مرضاة الله ورسوله.

قال سيدنا عمر رضى الله عنه: إنى لأكره نفسى على الجماع رجاء أن يخرج الله نسمة تسبحه وتذكره.

وقال ابن مسعود رضى الله عنه:

لو لم يبق من عمرى إلا عشرة أيام لأحببت أن أتزوج حتى لا ألقى الله عزبًا.

وقال: التمسوا الغنى فى النكاح مصداقًا لقول الله تعالى: ﴿ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [النور: ٣٢].

وقال الإمام أحمد:

من دعاك إلى غير التزوج فقد دعاك إلى غير الإسلام.

ولقد تزوج رحمه الله فى اليوم الثانى من وفاة امرأته وقال:

اكره أن أبيت عزبًا.

* * *

٤ - علاج شهوة الفرج عن طريق شهوة البطن:

لما كان الطعام هو الوقود الأساسى للجسم وبه يتم حركة الأعضاء المختلفة وجميع الوظائف الحيوية للإنسان فإن القليل من الطعام ضرورى لمسيرة الحياة.

قال ﷺ:

«ما ملأ آدمى وعاء شراً من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه».

وقال صلوات ربى وسلامه عليه:

«نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع».

هذا هو النظام المثالى الذى وضعه الإسلام لتناول الطعام باختصار شديد: لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع: ثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس.

ولماذا اهتم الإسلام بحض المسلم على قلة الأكل؟ إن الإجابة تبين عظمة الإسلام فى بناء العقول والأرواح حيث الزيادة فى الطعام هى زيادة فى الدم الذى يجرى فى جسم الإنسان وهذا معناه زيادة مجارى الشيطان فيصول ويجول فى ميدانه موقظًا الشهوات من مرقدها ومُخرجًا رغبات النفس من عقالها، فيخلد الإنسان إلى الأرض يرتع فى ميادين الشهوات ويغذى الجسم بماديات الحياة فتخمد الفطنة وتتثاقل الأرواح عن مدارجها وهذا هو الخسران المبين:

يا خادم الجسم كم تشقى لخدمته
وتطلب الربح مما فيه خسران

أقبل على النفس واستكمل فضائلها
فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

ولذلك فقد اهتم الشرع الحنيف بتهذيب شهوة الطعام لأنها أوسع الطرق إلى شهوة الفرج حتى لقد أمر الصادق المعصوم الشباب بالصوم فى حالة عدم القدرة على الزواج واقترن وصف المؤمن بقلة الأكل، أما الشره والجشع وكثرة الأكل فهى صفة الكافر لقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (١٢)﴾ [محمد: ١٢].

وقال رسول الله ﷺ:

«المسلم يأكل فى معى واحد والكافر فى سبعة أمعاء».

وقد شرح النووى ذلك فقال:

الصفات السبعة فى الكافر هى:

الحرص والشره وطول الأمل وسوء الطبع والحسد وحب السمنة.

وقال القرطبى: شهوات الطعام سبع:

شهوة الطبع، وشهوة النفس، وشهوة الفم، وشهوة الأذن، وشهوة الأنف، وشهوة الجوع وهى الضرورية التى يأكل بها المؤمن.

وقال ابن القيم:

إن الناس فى الأكل على ثلاث طبقات: طائفة تأكل كل مطعوم من حاجة وغير حاجة وهذا فعل أهل الجهل، وطائفة تأكل عند الجوع بقدر ما يسد الجوع فحسب، وطائفة يجوعون أنفسهم يقصدون بذلك قمع شهوة النفس وإذا أكلوا أكلوا ما يسد الرمق.

فإنك إن أعطيت بطنك سؤله
وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا

واسمع معى أخى المسلم إلى قول الله تعالى:

﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ ﴿٢٠﴾﴾

[الأحقاف: ٢٠].

هذا إنذار إلى المنهمكين فى الطيبات المباحة لأن من يعُود نفسه ذلك مالت نفسه إلى الدنيا، فلم يأمن أن يرتبك فى الشهوات والملاذ، كلما أجاب نفسه إلى واحد منها دعته إلى غيرها فيصير إلى أن لا يمكنه عصيان نفسه فى هوى قط وينسد باب العبادة دونه.

فلا ينبغى أن تعود النفس على الشره ثم يصعب تداركها فالبطنة أصل كل داء.

ولذلك فالهدى النبوى وضع علامات واضحات تدعو إلى الاعتدال فى الطعام وكبح جماح تلك الشهوة التى تقود إلى شهوات أشد خطورة لأنها وقود شهوة الجنس:

– عن أبى برزة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال:

«إنما أخشى عليكم شهوات الغنى فى بطونكم وفروجكم ومضلات الهوى».

– روى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«من الإسراف أن تأكل كل ما اشتهيت».

– وعن عائشة رضى الله عنها قالت: رآنى رسول الله ﷺ وقد أكلت فى اليوم مرتين فقال:

«يا عائشة، أما تحبين أن يكون لك شغل إلا جوفك. الأكل فى اليوم مرتين من الإسراف والله لا يحب المسرفين».

– وروى عن عائشة رضى الله عنها قالت: أول بلاء حدث فى هذه الأمة بعد نبيها الشبع، فإن القوم لما شبعت بطونهم سمنت أبدانهم فضعفت قلوبهم وجمحت شهواتهم.

– وروى عن عطية بن عامر الجهلى قال: سمعت سلمان رضى الله عنه وأُكره على طعام يأكله فقال حسبى أنى سمعت رسول الله يقول:

«أن أكثر الناس شبعًا فى الدنيا أطولهم جوعًا يوم القيامة».

– وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«ليؤتين يوم القيامة بالعظيم الطويل الأكول الشروب فلا يزن عند الله جناح بعوضة.

واقرءوا إن شئتم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾ [الكهف: ١٠٥].

– وروى عن ابن بُجَير رضى الله عنه وكان من أصحاب النبى ﷺ قال: أصاب النبى ﷺ جوع يومًا فعمد إلى حجر فوضعه على بطنه ثم قال:

«ألا رب نفس طاعمة ناعمة فى الدنيا جائعة عارية يوم القيامة، ألا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين، ألا رب مهين لنفسه وهو لها مكرم».

– وعن معاذ بن جبل رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ لما بعث به إلى اليمن قال له:

«إياك والتنعم فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين».

– وروى عن أبى أمامة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ.

«سيكون رجالا من أمتى يأكلون ألوان الطعام ويشربون ألوان الشراب ويلبسون ألوان الثياب ويتشدقون فى الكلام، فأولئك شرار أمتى».

– وعنى الضحاك بن سفيان رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له:

«يا ضحاك ما طعامك؟ قال: يا رسول الله، اللحم واللبن. قال: ثم يصير إلى ماذا؟ قال: إلى ما قد علمت. قال: فإن الله تعالى ضرب ما يخرج من ابن آدم مثلاً للدنيا».

وبعد ذلك القبس النورانى من الأحاديث النبوية يتبين لنا أن الجوع نهر يرده الملائكة والشبع بحر يرده الشيطان، وأن من حفظ بطنه حفظ فرجه، فلا بد من التحكم أولا فى شهوة البطن حتى يمكن التحكم فى شهوة الجنس لأن المادة وقود النار، والروح مدارج النور، فالإسلام اهتم بالروح فى المقام الاول وأعطاها زادها من نورانيات القرآن والعبادات وصالح الاعمال، أما الجسد فكل الأوامر تدعو إلى تكبيله بسياج متين من القناعة والعفة والطهارة حتى إن بعض الصالحين قال: لا تغتر بقوله تعالى:

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا ﴿١٩﴾﴾ [الطور: ١٩].

فإن كان ظاهر الآية إكرامًا وإنعامًا فإن فى باطنها ابتلاء واختبارًا حتى ينظر من هو معه ومن هو مع الحظ.

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام:

«إنى إنما خلقت الشهوات لضعفاء خلقي. فـإياك أن تعلق قلبك منها بشيء فأيسر ما أعاقبك به أن أنسخ حلاوة حبى من قلبك».

«يا داود تمسك بكلامى وخذ من نفسك لنفسك لا تؤتين منها فأحجب محبتى عنك، اقطع شهـوتك إلىَّ فإنى إنما أبحت الشهوات لـضعفاء خلقى، مـا بال الأقوياء أن ينالوا الشهوات فإنها تنقص حلاوة مناجاتى، فإنى لم أرض الدنيا لحبيبى ونزَّهته عنها».

« يا داود لا تجعل بينى وبينك عالمًا سكران بحبها يحجبك بسكره عن محبتى، أولئك قُطاع الطريق على عبادى المريدين، استعن على ترك الشهوات بإدمان الصوم».

«يا داود تحبب إلىَّ بمعـاداة نفسك وامنعهـا الشهوات أنظر إلـيك وترى الحجب بينى وبينك مرفوعة».

فـاللهم ارزقنا القناعـة وأعنَّا على الصـوم ومعـاداة نفوسنا، وجـنبنا الشره والجـشع والطمع واجعل طعامنا كفافًا كما جعلت قوت سيد الخلق وحبيب الحق.

وننتقل إلى النقطة الخامسة على معالم الطريق لحفظ الفرج.

* * *

٥ - آداب دخول البيوت :

إن البيوت هى المكان الأمين والحصن الحصين الذى تخلع فيـه المرأة حجابها لأنه كما قال الحبيب المصطفى: «من خلعت ثوبها فى غير بيتها فقد هتكت ما بينها وبين الله».

كمـا تمارس النساء أعـمالهن المنزلية فى مـأمن من أعين المتطفلين والفـضوليين بدون حجاب شرعى.

ولذلك فقد حـرص الإسلام أشد الحرص على تلك الحرية التى تعيـشها المرأة داخل البيت، وحرص على طهارتها وعفتها وحـيائها أن يخدش من نظرة الفجاءة فوضع قيودًا وحدودًا لدخول البيـوت حتى لا تحدث فتنة بين النساء والرجال لا يُحمد عـقباها حيث تُثار نوازع الشهوات وما يتبعه من رغبات حذَّر منها الشرع أشد التحذير.

ولذلك كان لابد من سد مكامن الخطروتضييق منافذ الشـيطان التى يسلك منها إلى الإنسان.

قال تعالى فى كتابه الكريم:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩) ﴾

[النور: ٢٧ - ٢٩].

- على المؤمن أن يستأذن عند دخول بيت غيره. ويزداد التـحذير إذاكان هذا البيت لغير المحارم وعليه أن يقول: «السـلام عليكم» ثلاث مرات فإن أذن له وإلا رجع، والرجوع هنا للوجوب.

- عدم الإذن بالدخول قد يكون صريحًا، وقد يكون ضمنيًا كالسكوت، وينبغى للمؤمن ألاَّ يغضب من ذلك، ففيه طهارة له كما أنبأنا المولى عزَّ وجل.

- ينبغى للمؤمن عند الاسـتئذان أن لا يقف تلقاء الباب بوجـهه ولكن ليكن الباب عن يمينه أو عن يساره. وعليه أن يفصح عن اسمه أو كنيـته التى هو مشهور بها ولا يقل: «أنا».

- على المؤمن أن يستأذن على أمه وأختـه لأنه لا يحب أن يراها عُريانة، أما الزوجة فلا يجب أن يستأذن عليها، ولكن يُستحب له ذلك لاحتمال أن تكون على هيئة لا تحب أن يراها عليها زوجها.

- أما البيوت غير المسكونة فلا حرج من دخولها مثل الفنادق والخانات ومنازل الأسفار.

إن تلك الآداب التى وضعت هى حماية وصيانة للمؤمنين جـميعًا فكل مؤمن سيجد من يرعى حرماته كما يرعى هو حرمات الآخرين.

وصدق رسول الله ﷺ عندما قال: «كل عين باكية يوم القيامة إلا عينًا غضَّت عن محارم الله» يحمى المسلم من الانزلاق فى معصية الله ووقتها لن تكفيه دموع الدنيا كلها والعمر كله حسرات على ما فرط فى جنب الله.

فاللهم احفظ أبصارنا واسـماعنا وجوارحنا عن معصيتك واجـعل قلوبنا متعلقة بك وهمومنا منحصرة إليك، فأنت الرحمن الرحيم الجواد الكريم.

* * *

٦ - النهى عن اتباع الهوى :

الشهوة هى تلك النازع النفسى إلى مسالك الهوى وقديما قالوا:

نون الهوان من الهوى محذوفة
فإذا هويت فقد لاقيت هوانا

وقالوا:

من عرف الهوى فقد هوى.

ومن ثم فاتباع الهوى طريق موصلة إلى الهاوية، وبلغ من خطورة ذلك أن الله حذر نبيه العابد داود فقال:

﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

هذا النبى العابد الذى كان يصوم يومًا ويفطر يومًا. وقال عنه سيد الأنبياء محمد ﷺ: **«خير الصيام صيام داود كان يصوم يومًا ويفطر يومًا، وخير القيام قيام داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه»**.

وهى شهادة نعتز بها لأنها صادرة من الصادق الأمين الذى قال له ربه:

﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧].

ومع ذلك فإن الله قد حذره من اتباع الهوى لأنه يضل عن سبيل الله:

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

ومن لم يكن بك فانيًا عن حظه
وعن الهوى وعن الأنس بالأحباب
فلأنه بين المراتب واقف
لمنال حظ أو لحسن مآب

فالهوى هو الإخلاد إلى الأرض والركون إلى الشهوات والغفلة عن ذكر الله وهو الضلال بعينه والعياذ بالله والردى فى دركات الجحيم، ولذلك فإن المؤمن مطالب بمجاهدة هوى النفس لأنه بريد الزنا كما قال بعض الصالحين وجعل الله جزاء تلك المجاهدة جنة المأوى حيث قال جل شأنه:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

فمقاومة نوازع الهوى تنتج من الخوف من الله.

فقد قيل:

يخرج الشهوة من القلب خوف مفزع أو شوق مقلق

فالخوف من عذاب الله أو الشوق إلى لقاء الله يطهران القلب من بطنة الشهوات.

ومن الحكم العطائية:

«حقيقة زوال الهوى من القلب حب لقاء الله تعالى فى كل نَفَس من غير اختيار حالة يكون المرء عليها. فإذاوجد المريد هذه العلامات فى نفسه فقد خرج من عالم حسه ووصل إلى حضرة قدسه».

ونظرًا لعظمة الخوف من الله الذى لا ينشأ إلا من علم واسع وضمير يقظ ونفس لوامة مستنيرة فقد جعل الله الجزاء عظيمًا أيضًا نتيجة الخوف من الله.

ومجاهدة هوى النفس الأمارة بالسوء فقال تبارك اسمه:

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

فاللهم نحمدك ونشكر فضلك وكرمك: تدعونا إلى أن نتحرر من عبودية الشهوات ثم تجزل لنا العطاء الجزيل والكرم العميم على ذلك فتجعله جنتين. فعليك أخى المسلم بمقاومة نوازع الهوى منذ بدايتها لأنها إيذان بانطلاق شهوة الجنس من عقالها ودخولك فى إطار عبودية المادة وتعريك من ستر الله الذى سترك به وأنت فى رحاب الإيمان.

رب مستور سبته شهوته
قد عرى من ستره وانتهكا
صاحب الشهوة عبد فإذا
ملك الشهوة أضحى ملكا

* * *

٧ - الاهتمام بالعقل كوسيلة لتهذيب الشهوات :

حكى أنه لما مات زوج رابعة العدوية استأذن فى الدخول عليها الحسن البصرى وأصحابه فأذنت لهم فى الدخول عليها وأرخت ستراً وجلست وراء الستر. فقال لها الحسن وأصحابه: إنه قد مات بعلك ولابد لك منه.

فقالت: نعم. ولكن من أعلمكم حتى أزوجه نفسى؟

فقالوا: الحسن البصرى.

فقالت: إن أجبتنى فى أربع مسائل فأنا لك:

فقال: سلى، إن وفقنى الله تعالى أجبتك.

قالت: ما تقول لو مت وخرجت من الدنيا أخرج على الإيمان أم لا؟

قال: هذا غيب، ولا يعلم الغيب إلا الله.

قالت: ما تقول لو وضعت فى القبر وسألنى منكر ونكير، أقدر على جوابهما أم لا؟

قال: هذا غيب، ولا يعلم الغيب إلا الله.

قالت: إذا حشر الناس يوم القيامة وتطايرت الكتب أعطى كتابى بيمينى أو بشمالى؟

قال: هذا غيب، ولا يعلم الغيب إلا الله.

قالت: إذا نودى للناس: فريق فى الجنة وفريق فى السعير. كنت أنا من أى الفريقين؟

قال: هذا غيب أيضاً ولا يعلم الغيب إلا الله.

قالت: من كان له غم هذه الأربعة كيف يشتغل بالتزويج؟

ثم قالت: يا حسن: كم جزء خلق الله العقل؟

قال: عشرة أجزاء، تسعة للرجال وواحد للنساء.

ثم قالت: يا حسن: كم جزء خلق الله الشهوة؟

قال: عشرة أجزاء، تسعة للنساء وواحد للرجال.

ثم قالت: يا حسن أنا أقدر على حفظ تسعة أجزاء من الشهوة بجزء من العقل وأنت

لا تقدر على حفظ جزء واحد من الشهوة بتسعة أجزاء من العقل؟!

فبكى الحسن وخرج من عندها.

من أجل هذا ومن أجل قدرة العقل على حفظ الشهوة فقد اهتم الإسلام بالعقل اهتماماً واسعاً لينميه ويرقيه ويجعله أكثر قدرة على تقدير الأمور وعواقبها بميزان دقيق، يعرف فوائدها ومضارها بميزان الشرع ويعرف ما سيجنيه منها فى دنياه وأخراه، ويعرف كيف يحفز النفس على مرضاة الله وكيف يحذرها من غضب الله حتى لا يتخبط الإنسان تحت ضغط النزعات والشهوات والأهواء ويتيه فى خضم الحياة.

ومن تلك الخطوات التى شملها المنهج الربانى لتنمية العقل وتوسيع مداركه:

- **حماية العقل بالوحى الإلهى:**

حيث جعل الله حجته على الناس هى الوحى والرسالة: فالعقل وحده قد يضل والفطرة وحدها قد تنحرف، ولا عاصم لعقل ولا فطرة إلا أن يكون الوحى هو الرائد الهادى وهو النور والبصيرة.

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء: ١٥].

فالوحى يرشد العقل ويوجهه ويجعل إدراكه سليماً ليميز الخبيث من الطيب، والوحى يحمى العقل من التيه فى الفلسفات المادية.

- **تحريم المسكرات التى تذهب بالعقل:**

من العبث أن يبدد الإنسان طاقاته العقلية فى سبيل إرضاء شهوات ونوازغ مؤقتة تعرضه للضلال والانحراف وسوء الرؤية وسوء التقدير مما قد يزلزل حياته وحياة أسرته ثم حياة المجتمع بأسره، ومن هنا كان تحريم الإسلام للمسكرات بجميع أنواعها سواء كانت الخمر أو المخدرات أو أى نوع من أنواع العقاقير التى تؤثر على خلايا المخ وتؤدى إلى الهلوسة.

قال تعالى فى كتابه الكريم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

وهل هناك فلاح أعظم من أن يكون الإنسان يقظاً واعياً مدركاً لوقع خطواته فى

الحياة مقدراً لمنافعها ومضارها دنيوياً وأخروياً؟

دعوة العقل إلى جولة فى الآفاق :

إن هذه الدعوة فى حد ذاتها هى تحرير للعقل من القيود التى تكبله وتجعله يتعثر تحت ضغط الحاجات والمطالب، حيث أنه بتجوله فى الآفاق يستشعر عظمة الخالق وقوته فيستمد منه مدداً وقوة لينهض بالأعباء التكليفية التى خلق من أجلها، كما أن هذه الجولة ستوقظه من سبات الغفلة وتفتح كل ما فيه من أذن واعية ومن طاقاته الفكرية.

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾

[آل عمران: ١٩٠].

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ [الحج: ٤٦].

- مخاطبة العقل بما هو أهل له:

لا يوجد منهج يكرم العقل الإنسانى مثلما يكرمه الإسلام ولا يوجد دين يشبع التطلعات العقلية ويجيب على تساؤلاتها مثلما يجيب الإسلام: ولا عجب فالعقل هو أداة الإدراك الإنسانى وكلما صقلت تلك الأداة كان الاستيعاب عظيماً وكانت نتيجة التصرف أعظم.

وقد نطق بهذه الحقيقة أعرابى على فطرة الله عندما سأله الناس: لم آمنت بمحمد؟ فقال: لأن دينه لم يأمر بشىء وقال العقل ليته ما أمر وما نهى دينه عن شىء وقال العقل ليته ما نهى.

ولذلك فلقد تكررت كثيراً النداءات القرآنية: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ﴾ [النساء: ٨٢]، [محمد: ٢٤]. ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٧٦]، ، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٩]، ، ﴿ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤]، ﴿ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة: ١١٨].

فاللهم اجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه واجعل لنا فى أبصارنا نوراً وفى أسماعنا نوراً وفى عقولنا نورا واهدنا إلى أحسن الأخلاق والأفعال فإنه لا يهدى لأحسنها إلا أنت.

* * *

٨ - تقوى الله :

إن تقوى الله هى رأس الأمر كله وعموده وذروة سنامه، وعندما خاطب الله نساء

النبى فى سورة الأحزاب وبالتبعية نساء المؤمنين اللاتى لهنَّ فى أمهاتهن قدوة حسنة قال تعالى:

﴿ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾

[الأحزاب: ٣٢] إلى آخر التعليمات التى تدعو إلى الطهارة والعفاف.

أى إن الأساس المتين الذى تُبنى عليه الأخلاق الكريمة فى المجتمع المسلم هو تقوى الله.. وهى كلمة جامعة شاملة تأتى بعد إقامة دعائم الإسلام، فروضه وسننه، وقد عرَّفها سيدنا على رضى الله عنه بقوله: هى العمل بالتنزيل، والخوف من الجليل، والرضا بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل.

فالتقوى هى السلاح الاقوى.

وقال سيدنا عمر رضى الله عنه: إنك إذا اتقيت الله، اجتنبت ما حرَّم الله.

وقال بعض الصالحين:

إن إخلاص الوجهة إلى الله سبحانه وتعالى، ورفض الشواغل البدنية، والترقى إلى الورع والانسلاخ من رق عالم الشهادة، كل هذا يحصل نتيجة عن التقوى حسبما وعد الله إذ يقول:

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

كما قال جل شأنه:

﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [البقرة: ١٩٧].

إذا أنت لم ترحل بزادٍ من التقى
وأبصرت بعد اليوم من قد تزودا
ندمت على ألا تكون كمثله
ولم ترصد مثل ما كان أرصدا

وكان شاه بن شجاع الكرمانى يقول:

من عمر ظاهره باتباع السنة وباطنه بدوام المراقبة وغض بصره عن المحارم وكف نفسه عن الشهوات لم تخطئ له فراسة.

والله سبحانه يجزى العبد على عمله بما هو من جنس عمله.

ومن ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه، فإذا غض بصره عن محارم الله عوضه الله بأن يطلق نور بصيرته عوضًا عن حبسه بصره لله، ويفتح له باب العلم والإيمان والمعرفة، والفراسة الصادقة المصيبة التى إنما تنال ببصيرة القلب، وضد هذا ما وصف الله به اللوطية من العَمَهْ الذى هو ضد البصيرة فقال تعالى:

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر: ٧٢].

فوصفهم بالسكرة التى هى فساد العقل، والعَمَهْ الذى هو فساد البصيرة، فالتعلق بالصور يوجب فساد العقل وعَمَهْ البصيرة يسكر القلب

لله قوم أطاعوه وما قصدوا
سواء إن نظروا الأكوان بالعبر
والوجد والشوق والأذكار قوتهم
ولازموا الجد والإدلاج فى البكر
وبادروا لرضا مولاهم وسعوا
قصد السبيل إليه سعى مؤتمر
وآمنوا واستقاموا مثل ما أمروا
واستغرقوا وقتهم فى الصوم والسهر
وجاهدوا وانتهوا عما يباعدهم
عن بابه واستلانوا كل ذى وعر
جنات عدن لهم ما يشتهون بها
فى مقعد الصدق بين الروض والزهر
لهم من الله ما لا شيء يعدله
سماع تسليمه والفوز بالنظر

فاللهم يسر علينا متابعتهم وأوصل إلينا فتوحاتهم وألحقنا بهم واحشرنا فى زمرتهم واهدنا هديهم وسلكنا طريقهم. إلهنا ومولانا: نسألك أن تصلح شأننا وشأن أقاربنا وأحبابنا. وأفض علينا من بحر إحسانك واجبرنا بغفرانك وارو عطاش قلوبنا برضوانك واكتب لنا توقيع أمانك يارب العالمين.

تلك كانت مقتطفات موجزات وإشارات نورانيات للطريق التى رسمها الشارع الحكيم لحفظ الفرج حفاظًا على طهارة المجتمع المسلم وتماسكه وتجنبه لمهالك عديدة تبدد طاقاته هو فى غنى عنها.

فما هو موقف الإسلام من تلك الحدود التى رسمها لمنهجه؟

لقد حذَّر الله ورسوله من انتهاك تلك الحدود أشد التحذير ثم فرض عقوبات صارمة لمن يقع فى جريمة الزنا يعمل بها فى الدنيا قبل الآخرة لأن كثير من الناس لا يرتدع بغير القوة المادية العاجلة ولا يقيم وزنًا للعقوبات فى الآخرة، حتى لقد قيل:

«إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن».

اسمع معى أخى المسلم لتلك التحذيرات الربانية وعقوبة الزنا من القرآن الكريم:

﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [النساء: ١٤].

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢].

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٨].

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأعراف: ٣٣].

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠].

﴿ وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا (١٥) وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١٥، ١٦].

﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور: ٢، ٣].

المذكرة التفسيرية لعقوبة الزنا من السنة المطهرة

أولا: يذهب الزنا نور الإيمان من قلب الزانى:

- عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، فإذا فعل خلع ربقة الإسلام من عنقه فإن تاب تاب الله عليه».

ثانيًا: الفاحشة تبيح قتل مرتكبها:

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزانى، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة».

ثالثًا: الزنا نذير الفقر والفزع:

عن ابن عمر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«الزنا يورث الفقر».

عن عبد الله بن زيد رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«يا بغايا العرب! يا بغايا العرب. إن أخوف ما أخاف عليكم الزنا والشهوة الخفية».

رابعًا: لا يستجيب الله دعاء الزانى:

عن عثمان بن أبى العاص رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال:

«تفتح أبواب السماء نصف الليل فينادى مناد: هل من داع فيستجاب له؟ هل من سائل فيُعطى؟ هل من مكروب فيفرج عنه؟ فلا يبقى مسلم يدعو بدعوة إلا استجاب الله عز وجل له إلا زانية تسعى بفرجها أو عشاراً».

خامسًا: تتقد النار فى وجه الزانى يوم القيامة.

عن عبد الله بن بُسْر رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال:

«إن الزناة تشتعل وجوههم ناراً».

سادسًا: يرمى الزناة فى فرن يصهر أجسامهم ويحرق أبدانهم:

عن سمرة بن جندب رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال:

«رأيت الليلة رجلين أتيانى فأخرجانى إلى أرض مقدسة، فذكر الحديث إلى أن قال: فانطلقنا إلى ثقب مثل التنور أعلاه ضيق وأسفله واسع يتوقد تحته ناراً فإذا ارتفعت ارتفعو حتى كادوا أن يخرجوا وإذا أخمدت رجعوا فيها، وفيها رجال ونساء عُراة».

سابعًا: مرتكب الفاحشة يشطب اسمه من سجل الأبرار ويطرد من حظيرتهم:

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إذا زنى الرجل خرج من الإيمان فكان عليه كالظلة فإذا أقلع رجع إليه الإيمان».

ثامنًا: لا ينظر الله للزانى نظر رحمة ورأفة ولا يدخل الجنة:

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر».

روى عن بريدة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «إن السماوات السبع والأرضين السبع ليلعنَّ الشيخ الزانى، وإن فروج الزناة ليؤذى أهل النار نتن ريحها».

وعن نافع مولى رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

«لا يدخل الجنة مسكين مستكبر ولا شيخ زان ولا منان على الله بعمله».

تاسعًا: انتشار الزنا يوجد أولاداً مفسدين مُخربين مُدمرين:

عن ميمونة رضى الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«لا تزال أمتى بخير ما لم يَفْشُ فيهم ولد الزنا، فإذا فشا فيهم ولد الزنا أوشك أن يعمهم الله بعذاب».

عاشراً: إنذار بالخراب لكل بلد ظهر فيه الزنا مع عذاب الله:

عن ابن عباس رضى الله عنهم عن رسول الله ﷺ قال:

«إذا ظهر الزنا والربا فى قرية فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله».

وبعد الاطلاع على عقوبة الزنا من القرآن الكريم والسنة النبوية نجد أن المرء المسلم ليقشعر من تلك الفاحشة لما تجره عليه من ويلات عظيمة فى الدنيا والآخرة.

وهذا يجعل العلاج متكاملاً لتربية ضمير المسلم ووجدانه وسلوكياته على منهج الله الحكيم وشرعه القويم بما يخلق مجتمعًا إسلاميًا يقيم دعائمة على أسس متينة من الحق وليس على أهواء ونزعات شتى تهوى به فى دركات الجحيم.

إنا نشهد بعظمتك يارب وحكمتك فقد خلقت الداء وشخصت الدواء، خلقت الغرائز فى الإنسان وخلقت معها من التشريعات والأحكام ما يقف سياجًا حصينًا أمام انطلاق تلك الغرائز بما فيها من قوة مدمرة بل هذبتها وصقلتها ووجهتها الوجهة الشرعية السليمة التى تحقق الحياة والفلاح للمجتمع الإسلامى.

نشهد ياربنا بعظمة رسولك فى تبليغ رسالتك وفى الأخذ بيد المسلمين برحمة ورفق ورفعهم إلى مدارج النور مجاهدين نزعات أنفسهم وشهواتهم لأن نفوسهم تاقت إلى ما هو أعظم من متطلبات المادة إنه غذاء الروح والعقل، إنه الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره، مما هذّب نفوسهم وتحكم فى شهواتهم بما يرضى الله ورسوله.

ذلك الرسول المربى العظيم الذى جاء له واحد من المسلمين يطلب منه أن يبيح له الزنا، فلم يثر فى وجهه ويغلق أبواب الرحمة أمامه بل شرح صدره له وأخذه بالهوينا وسأله إن كان يرضاه لزوجته أو أمه أو أخته وفى كل مرة يأبى الرجل ويستقبحه لأهله فأفهمه الرسول ﷺ أن المسلمين كذلك يأبونه لأهلهم ودعا الله له أن يزيل عنفوان شهوة النساء من صدره فقام الرجل وقد شفاه الله بهدى الإيمان ويقظة العقل.

فاللهم اهدنا بهديك الكريم وأنر بصرنا وعقولنا بنور الإيمان واليقين حتى نرى الحق حقًا فنتبعه ونرى الباطل باطلا فنتجنبه.

والآن ننتقل إلى المعالجة الإسلامية لشهوة البنين وهى ثانى الشهوات التى ابتُلى المؤمنون بها لتكون محك الاختبار فى معارج الإيمان.

ثانيًا: المعالجة الإسلامية لشهوة البنين

*** أهمية حب الأبناء:**

إن حب الأبناء الذى فُطر عليه الوالدان هو نعمة كبرى من نعم الله علينا فى الحياة إذ

لولا هذا الحب لا نقرض النوع الإنسانى من الأرض، ولما صبر الأبوان على رعاية أولادهما، ولما قاما بكفالتهم وتربيتهم والسهر على أمرهم والنظر فى مصالحهم، واستعذاب أصعب الآلام فى سبيل تحقيق أعذب الآمال لأبنائهم.

وقد صور القرآن الكريم هذه المشاعر الأبوية النبيلة الصادقة أروع تصوير فى عدة آيات بينات:

- فجعل من الأولاد تارة زينة الحياة وبهجتها: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦].

- ويعتبرهم تارة أخرى نعمة عظيمة تستحق شكر الواهب المنعم:

﴿أَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ [الإسراء: ٦].

- ويعتبرهم ثالثة قرة أعين إن كانوا سالكين سبيل المتقين:

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

- ويجعل الأبناء نعمة كبرى ببركة الاستغفار والتضرع إلى الله:

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠- ١٢].

- ويطلب الرسل من الناس تقوى الله وطاعته جزاء على ما رزقهم من ذرية:

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء: ١٣١- ١٣٤].

- وجعله غاية العطاء الإلهى والبشرى استجابة لدعاء أبنائه:

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨) فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (٣٩) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٣٨- ٤٠].

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا

فى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ [آل عمران: ٤٥ - ٤٧].

وعندما توجه سيدنا إبراهيم بالضراعة إلى الله أن يرزقه الذرية الصالحة كانت له البشرى أيضًا:

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ ﴾ [الصافات: ٩٩- ١٠١].

وبالنسبة لامرأته:

﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [هود: ٧١- ٧٣].

ولا عجب أن يقترن العطاء الإلهى للذرية بكلمة البشرى دائمًا فالأبناء هم الامتداد الطبيعى للإنسان فى الحياة بعد موته، وهم الشموع التى تضىء حياته وتجعل لها معنى وقيمة.

وهم الغرس الدنيوى الذى يؤهله لدخول الجنة إذا أحسن رعايته وسقيه بتعاليم الله ورسوله وخلق منهم رجالاً يحملون راية الحق عالية خفاقة ونساء يقمن بتربية أبنائهن على حب الله ورسوله. وهكذا تتوالى الأجيال جيلاً بعد جيل يضيفون لبنات فى بناء الحضارة البشرية ويضعون علامات واضحة على طريق الحق والخير والنور.

ونظرًا لتلك الأهمية القصوى لدورالأبناء فى حياة البشرية فقد اهتم الشارع الحكيم برعايتهم والمحافظة عليهم وتأديبهم فى مرضاة الله ورسوله. وعلى الأبوين أن يسيرا على السنن التى وضعها الإسلام فى تربية الأولاد.

*** الرحمة بالأولاد منحة من الله للعباد:**

ومن المشاعر النبيلة التى أودعها الله فى قلبى الأبوين شعور الرحمة بالأولاد والرأفة بهم والعطف عليهم، وهو شعور كريم يساعد الأبوين على ما يتحملانه من مشقة وجهد فى سبيل تنشئة أجيال إسلامية تعرف أهمية وقع خطواتها على دروب الحياة..

والقلب الذى يتجرد من خلق الرحمة يتصف صاحبه بالفظاظة والغلظة القاسية وهذا

ليس بخلق المسلم الحقيقى الذى يسير على نهج نبى الرحمة والذى أرسله الله رحمة للعالمين والذى قال صلوات ربى وسلام عليه عن الرحمة:

«من لا يَرحَم لا يُرحم».

فالرحمة هى السراج المنير الذى يعين على كظم الغيظ والعفو عن الناس وعلى الرفق واللين والحلم وعلى العفو عمن ظلم ووصل من قطع.

ولذلك فقد اهتم الرسول ﷺ بموضوع الرحمة وحرصه الزائد على تحلى الكبار بهذا الخلق الكريم والشعور النبيل لأنه شجرة وارفة الظلال يستظل الصغار تحتها من وهج الحياة وقيظها.

- عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:
«ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف حق كبيرنا».
- عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: أتى النبى ﷺ رجل ومعه صبى فجعل يضمه إليه فقال النبى ﷺ:
«أترحمه؟ قال: نعم. قال: فالله أرحم بك منك به، وهو أرحم الراحمين».
- عن عائشة رضى الله عنها قالت: جاء أعرابى إلى النبى ﷺ فقال: أتقبلون صبيانكم؟ فما نقبلهم! فقال النبى ﷺ:
«أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة؟».
- عن أنس بن مالك قال: جاءت امرأة إلى عائشة رضى الله عنها فأعطتها عائشة ثلاث تمرات، فأعطت كل صبى لها تمرة وأمسكت لنفسها تمرة، فأكل الصبيان التمرتين ونظرا إلى أمهما فعمدت الأم إلى التمرة فشقتها فأعطت كل صبى نصف تمرة، فجاء النبى ﷺ فأخبرته عائشة فقال: **«وما يعجبك من ذلك؟ لقد رحمها الله برحمتها صبيها».**
- عن أسامة بن زيد رضى الله عنهما قال: أرسلت بنت النبى ﷺ إلى أبيها أن ابنى قد احتضر فاشهدنا، فأرسل عليه الصلاة والسلام يُقرىء السلام ويقول:
«إن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل شىء عنده بأجل مُسمى فلتصبر ولتحتسب».

فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينها، فقام ومعه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل وأُبى بن كعب وزيد بن ثابت، ورجال رضى الله عنهم. فرفع إلى رسول الله ﷺ الصبى فأقعده فى حجره ونفسه تقعقع - أى تتحرك وتضطرب -، ففاضت عيناه فقال سعد: يارسول الله ما هذا؟ فقال: «هذه رحمة جعلها الله تعالى فى قلوب عباده».

وفى رواية:

«جعلها الله فى قلوب من شاء من عباده وإنما يرحم الله من عباده الرحماء».

ولا شك أن ظاهرة الرحمة إذا حلت فى قلب الأبوين فهى من الله تعين الأبوين على تربية الأولاد بما يرضى الله ورسوله حتى إن الأب قد يقسو ليرحم أبناءه من سعير الآخرة، أما الحب المُفرط فيه فهو نزعة من نزعات الشيطان حتى لتجد الأب يدلل ابنه فيلبى له طلبات تغذى فيه وقود المادة وتقوده إلى الجحيم والعياذ بالله.

فالشارع الحكيم يقف موقفًا واضحًا وحازمًا تجاه الأبناء فهم بداية نعمة وفضل من الله، وهم أمانة فى عُنق الآباء، عليهم رعايتهم وتنشئتهم التنشئة الإسلامية الصحيحة بحيث يقيم المجتمع الإسلامى أركانه على دعائم ثابتة، وليس على أعواد هشة أفسدها التدليل وطغت عليها شهوة حب الأبناء فأعمت الآباء عن طريق الحق والصواب.

وإليك ذلك المنهج الإسلامى فى تربية الأولاد التربية السليمة بما تتفق مع الرسالة السامية التى يتشرفون بالانتماء إليها، فهو يضع الإطار الصحيح الذى يجب أن يعيش الآباء والأبناء فى إطاره ويرسم الخطوط الواضحة والمعالم الموجهة على طريق النور والإيمان، ولا يترك الأبناء سفينة تائهة بين أمواج شهوات ورغبات الأولاد، تارة يقعون بين التدليل المُفرِط وتارة بين الجحود المنكر.

فتعال معى يا أخى نغترف من فيض الكريم فى منهجه الحكيم لإرساء دعائم البنيان المتين.

***

منهج الإسلام فى إصلاح الأبناء

جاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يشكو إليه عقوق ابنه، ونسيانه لحقوقه، فقال الولد: يا أمير المؤمنين أليس للولد حقوق على أبيه؟ قال: بلى. قال: فماهى يا أمير المؤمنين؟

قال عمر: أن ينتقى أمه ويحسن اسمه ويُعلمه الكتاب (أى القرآن).

قال الولد: يا أمير المؤمنين إن أبى لم يفعل شيئًا من ذلك، أما أمى فإنها زنجية كانت

لمجوسى، وقد سمانى جُعلاً (أى خنفساء) ولم يُعلمنى من الكتاب حرفًا واحداً.

فالتفت عمر إلى الرجل وقال له:

جئت إلى تشكو عقوق ابنك، وقد عققته قبل أن يعقُك وأسأت إليه قبل أن يُسىء إليك؟!.

وهكذا حمل عمر الرجل مسئولية عقوق ولده له حين أهمل تربيته ورعايته فى ضوء منهج الله الحكيم وشرعه القويم.

فتعال معى أخى المسلم نلقى الضوء على قبس من منهج الإسلام فى إصلاح الأبناء حيث يشتمل ذلك المنهج على عدة نقاط أساسية منها:

١ - أن الأولاد أمانة ومسئولية:

- عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«كفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يقوت».

- وعن الحسن رضى الله عنه عن نبى الله ﷺ قال:

«إن الله سائل كل راع عما استرعاه حفظ أم ضيع حتى يسأل الرجل عن أهل بيته».

- عن ابن عمر رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«كلكم راع ومسئول عن رعيته، الإمام راع ومسئول عن رعيته والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته وكلكم راع ومسئول عن رعيته».

تلك كانت المفاهيم الشاملة لتحديد مسئولية الآباء تجاه الأبناء.

ثم يفصل الرسول الحبيب إرشاداته ووصاياه لرسم الإطار العام لتلك المسئولية بحيث لا يتركها لشهوات الآباء وأهوائهم المتناقضة عن تلك الإرشادات:

- أمره بالفتح على الولد بكلمة «لا إله إلا الله».

عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ أنه قال:

«افتحوا على صبيانكم أول كلمة بلا إله إلا الله» وقد أراد الرسول ﷺ بذلك أن تكون كلمة التوحيد هى أول ما يقرع سمع الطفل وأول ما يفصح بها لسانه وأول ما يتعقلها

من الكلمات والألفاظ.

- تعريفه أول ما يعقل أحكام الحلال والحرام:

عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: «اعملوا بطاعة الله واتقوا معاصى الله ومروا أولادكم بامتثال الأوامر واجتناب النواهى فذلك وقاية لهم ولكم من النار».

وهكذا حين يتفهم الولد منذ نعومة أظفاره أحكام الشريعة فإنه لا يعرف فى شبابه سوى الإسلام تشريعًا ومنهاجًا.

- أمره بالعبادات وهو فى سن السابعة:

عن ابن عمرو بن العاص رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرقوا بينهم فى المضاجع».

ويقاس على الصلاة الترويض على بعض أيام الصوم وتعويده الحج إذا كان الأب يستطيعه.

وهكذا يتربى الابن على طاعة الله والقيام بحقه والشكر له ويجد فى هذه العبادات طهارة لروحه وصحة لجسمه وتهذيبًا لخلقه وإصلاحًا لأقواله وأفعاله.

- تأديبه على حب الرسول ﷺ وحب آل بيته وتلاوة القرآن الكريم.

- عن على كرم الله وجهه أن النبى ﷺ قال:

«أدبوا أولادكم على ثلاث خصال: حب نبيكم وحب آل بيته وتلاوة القرآن، فإن حملة القرآن فى ظل عرش الله يوم لا ظل إلا ظله مع أنبيائه وأصفيائه» ويتفرع عن هذا تعليمهم مغازى رسول الله ﷺ وسير الصحابة الكرام وشخصيات القادة العظماء والمعارك الحاسمة فى التاريخ.

وهكذا تكون الأمانة والمسئولية: يتربى الولد على الإيمان الكامل والعقيدة الراسخة وليس على النوادى والتليفزيون ودعايات أهل الكفر والضلال والدجل الإلحادى.

٢ - النفقة على الأولاد واجب شرعى:

- عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«دينار أنفقته فى سبيل الله، ودينار أنفقته فى رقبة ودينار تصدقت به على مسكين ودينار

أنفقته على أهلك، أعظمها أجرًا الذى أنفقته على أهلك».

- وعن ثوبان مولى رسول الله ﷺ: قال **«أفضل دينار ينفقه الرجل دينار على عياله ودينار ينفقه على فرسه فى سبيل الله ودينار ينفقه على أصحابه فى سبيل الله».**

قال أبو قلابة: بدأ بالعيال، ثم قال أبو قلابة: أى رجل أعظم أجرًا من رجل ينفق على عيال صغار يُعفهم الله به أو ينفعهم الله به ويغنيهم؟

- وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«عُرض علىَّ أولُ ثلاثة يدخلون الجنة وأول ثلاثة يدخلون النار؛ فأما أول ثلاثة يدخلون الجنة؛ فالشهيد وعبد مملوك أحسن عبادة ربه ونصح لسيده، وعفيف متعفف ذو عيال - وأما أول ثلاثة يدخلون النار: فأمير مُسلَّط وذو أثرٍ من مال لا يؤدى حق الله فى ماله، وفقير فخور».

- وعن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال له:

«وإنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا أُجرت عليها حتى ما تجعل فى فىّ امرأتك».

- عن ابن مسعود البدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال:

«إذا أنفق الرجل على أهله نفقة وهو يحتسبها كانت له صدقة».

- وعن المقدام بن مَعْد يكرب رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«ما أطعمت نفسك فهولك صدقة وما أطعمت ولدك فهولك صدقة وما أطعمت زوجتك فهولك صدقة وما أطعمت خادمك فهو لك صدقة».

- وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«اليد العليا خير من اليد السُّفلى وابدأ بمن تعول: **أمك وأباك وأختك وأخاك وأدناك فأدناك».**

- عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يومًا لأصحابه:

«تصدقوا، فقال رجل: يا رسول الله عندى دينار، قال: **أنفقه على نفسك**، قال: إن عندى آخر. قال: **أنفقه على زوجتك**، قال: إن عندى آخر، قال: **أنفقه على ولدك**، قال: إن عندى آخر، قال: **أنفقه على خادمك**، قال: عندى آخر: قال: **أنت أبصر به».**

- وعن كعب بن عُجرة رضى الله عنه قال: مرَّ على النبى ﷺ رجل فرأى أصحاب رسول الله ﷺ من جَلَدِه ونشاطه فقالوا: يا رسول الله لو كان هذا فى سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ:

«إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو فى سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو فى سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يُعفها فهو فى سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو فى سبيل الشيطان».

- وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن المعونة تأتى من الله على قدر المئونة وإن الصبر يأتى من الله على قدر البلاء».

- وروى عن جابر رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال:

«أول ما يوضع فى فى ميزان العبد نفقته على أهله».

وهكذا فإن النفقة على الأبناء ضرورة حتمية يفرضها الشرع ويثيب عليها الإنسان المسلم حتى لا يضيع الأبناء ويتعرضون للتشرد، ولكن يكون معلومًا أن تلك الضرورة بقدرها أى فى غير إسراف ولا مخيلة حتى لايفسد الأبناء من الترف والتدليل فكلنا يعيش فى إطار الدستور العظيم الذى وضعه لنا القرآن الكريم.

﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف: ٣١].

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٧].

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٩].

﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٦، ٢٧].

وفى نفس الوقت فإن التقتير يعرض الأولاد لكثير من المفاسد الاجتماعية التى تنخر كالسوس فى أركان المجتمع المسلم.

فعليك أخى المسلم بالإنفاق على أبنائك فى غير تقتير ولا تبذير لأن هذا فيه صلاح لك ولذريتك وللمجتمع المسلم بأسره لأن الترف فيه هلاك الأمم والشعوب كما حذرنا

من ذلك، المولى عز وجل فى قرآنه الكريم: **﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾** [الإسراء: ١٦].

وكما حذرنا الحبيب المصطفى عندما قال:

«والله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم».

٣ - عدم المفاضلة بين الأبناء:

قد يجمع هوى النفس عند بعض الآباء إلى تفضيل أحد الأبناء على الآخرين، أو تفضيل الذكورعلى الإناث أو إيثار بعضهم ببعض الامتيازات المادية أو المعنوية مما يسبب الشقاق والعداوة بين الإخوة أو يسبب الصراعات النفسية للابن المضطهد والإفساد للابن المدلل.

وكل هذا مما يأباه الإسلام ويرفضه بكل شدة لأنه دين الحق والعدل والمساواة، ودين المحبة بين الناس، ودين الفطرة السوية.

﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠].

فهو يريد مجتمعًا متماسكًا لا تناحر فيه ولا خلاف، ويريد نفوسًا مطمئنة ارتوت من ينابيع الحق والعدالة الاجتماعية فأصبحت شموعًا تضئ للحيارى والمضطهدين فكل إناء ينضح بما فيه، والمسلم الحق يشيع مبادئ الخير كلها ويرسى دعائم المبادئ النبيلة التى تنشدها البشرية قاطبة فى وهج الصراعات الدنيوية التى تعيشها.

فاسمع معى أخى المسلم إلى تلك التوجيهات النبوية التى تسدد خطانا فى تحقيق العدل بين الأبناء حتى نبنى نفوسًا سوية تعرف كيف تقوم بحقوق ربها وكيف تبر آباءها وتخلص لربها، وتسير على نهج نبيها بما يصلح شأنها وشأن مجتمعاتها:

- روى ابن حبان عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«رحم الله والدًا أعان ولده على بره».

- وروى الطبرانى وغيره:

«ساووا بين أولادكم فى العطية».

– وروى البخارى ومسلم عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما أن أباه أتى به رسول الله ﷺ فقال: إنى نحلت ابنى هذا – أى أعطيته – غلامًا كان لى. فقال رسول الله ﷺ:

«أكلَّ ولدك نحلته مثل هذا».

فقال: لا.

فقال رسول الله ﷺ: «فارجعه».

– وفي رواية قال رسول الله ﷺ: «أفعلت هذا بولدك كلهم؟ قال: لا.

قال عليه الصلاة والسلام: اتقوا الله واعدلوا فى أولادكم. فرجع أبى فردَّ تلك الصدقة».

– وفى رواية: قال رسول الله ﷺ: «يا بشير، ألك ولد سوى هذا؟ قال: نعم. قال: أكلهم وهبت له مثل هذا؟ قال: لا قال: فلا تشهدنى إذن فإنى لا أشهد على جور – أى ظلم – ثم قال: أيسرك أن يكونوا إليك فى البر سواء؟ قال: نعم

قال: فلا إذن.

– وروى أنس أن رجلاً كان عند النبى ﷺ فجاء ابن له فقبله وأجلسه على فخذه، وجاءت ابنة له فأجلسها بين يديه فقال رسول الله ﷺ:

«ألا سويت بينهما»؟

* وبالنسبة للبنات:

فقد اهتم الإسلام اهتمامًا خاصًا بهن نظرًا لتلك المعاناة اللاتى عانين منها في العصر الجاهلى الذى قال الله تعالى فيه:

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩].

وهكذا أخذ الإسلام يزيل رواسب الجاهلية ويدعو إلى المساواة المطلقة والعدل الشامل لم يفرق في المعاملة الرحيمة والعطف الأبوى بين ذكر وأنثى تحقيقًا لقوله تبارك وتعالى:

﴿ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٨].

فجعل رزق الذكور أو الإناث خاضع لمشيئته جل شانه:

﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى: ٤٩].

كما جعل أساس الثواب الأخروى واحد للذكر والأنثى.

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

ونظرًا لعمق رواسب الجاهلية فى النفوس التى تميز الذكر عن الأنثى فقد وضع الإسلام تميزًا خاصًا فى الثواب لمن رزقه الله الإناث فأحسن تربيتهن ورعايتهن بما يرضى الله ورسوله لأنهن أمهات المستقبل والترحيب بهن وإعدادهن لدورهن المنشود يخلق رجالاً عظامًا قادرين على حمل مشعل الرسالة التى تضئ الأرض نورًا، وتملأها حقًا وعدلاً.

– وعن ابن عباس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«من كانت له أنثى فلم يئدها ولم يهنها ولم يؤثر ولده – يعنى الذكور – عليها أدخله الله الجنة».

– وعن المطلب بن عبد الله المخزومى رضى الله عنه قال: دخلت على أم سلمة زوج النبى ﷺ فقالت: يا بنى ألا أحدثك بما سمعت من رسوله الله ﷺ؟ قلت: بلى يا أمَّه. قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أنفق على ابنتين أو أختين أو زواتى قرابة يحتسب النفقة عليها حتى يغنيهما من فضل الله أو يكفيهما كانتا له سترًا من النار».

– وعن جابر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«من كان له ثلاث بنات يؤويهن ويرحمهن ويكفلهن وجبت له الجنة البتة. قيل: يا رسول الله فإن كانتا اثنتين؟ قال: وإن كانتا اثنتين قال: فرأى بعض القوم أن لو قال: واحدة لقال واحدة».

– وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال:

«من كان له ثلاث بنات فصبر على لأوائهن وضرائهن وسرائهن أدخله الله الجنة برحمته إياهن فقال رجل: واثنتان يا رسول الله؟ قال: واثنتان قال رجل: يا رسول الله: وواحدة: قال: وواحدة».

– عن عائشة رضى الله عنها قالت: دخلت علىّ امرأة ومعها ابنتان لها تسأل، فلم تجد عندى شيئًا غير تمرة واحدة فأعطيتها إياها فقسمتها بين ابنتيها ولم تأكل منها شيئًا، ثم قامت فخرجت فدخل النبى ﷺ علينا فأخبرته فقال: **«من ابتلى من هذه البنات بشىء فأحسن إليهن كن له سترًا من النار»**.

– عن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال:

«من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو وضم أصابعه» وفى رواية:

«دخلت أنا وهو الجنة كهاتين وأشار بأصبعيه السبابة والتى تليها».

– عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عن قال: قال رسول الله ﷺ:

«من كان له ثلاث بنات أو ثلاث أخوات أو بنتان أو أختان فأحسن صحبتهن واتقى الله فيهن فله الجنة».

صدقت يا سيدى يا رسول الله وجازاك الله عنا خير ما جازى به نبيًا عن قومه ورسولاً عن أمته فقد غيرت مفاهيم الجاهلية الظالمة وأرسيت قواعد العدل والمساواة وجعلت المسلمين الذين استناروا بهديك يستقبلون الأنثى بانشراح صدر بعد ما كانوا يتوارون من سوء ما بشروا به، وأصبحوا ينزلون الإناث المنزلة اللائقة بهن ابتغاء ما عند الله ورسوله، ولولا شريعتك الغراء ما تباهت الأمم بما حققته من منزلة للمرأة فأنت أصل كل فضل وأنت النور الذى ملأ الآفاق والحرية التى تتفس بها كل مكبل الصعداء.

٤ – الترغيب فى تأديب الأولاد:

لقد حرص الإسلام فى كل مواقفه بالنسبة للذرية على رسم الخطوط الدقيقة التى ترسم حياتهم وتحدد شخصياتهم وتنشئهم على العقيدة الإيمانية الصحيحة، ولم يترك ذلك لنزعات الآباء وشهواتهم فهم غرس الأمة الإسلامية ودعامتها ومن أغلى الكنوز الواجب الحفاظ عليها وصيانتها من كل دنس أو فكر مضلل أو ميوعة، فإذا ضاع الشباب فى خضم الحياة ضاعت معهم الامة وتداعت عليها الأمم الأخرى كما تتداعى الذئاب إلى قصعتها.

لذلك نرى الرسول يشدد على تأديب الأولاد فيقول صلوات ربى وسلامه عليه:

– عن جابر بن سمرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«لأن يؤدب الرجل ولده خير له من أن يتصدق بصاع».

– وعن أيوب بن موسى عن أبيه عن جده رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«ما نحل والد ولدًا من نحل أفضل من أدب حسن»**.

– وروى ابن ماجه عن ابن عباس عن النبى ﷺ: «أكرموا أولادكم وأحسنوا أدبهم».

وقد وجه الرسول ﷺ الخطاب للآباء وشدد عليهم فى تأديب الأولاد لما للآباء من تأثير بالغ على سلوك النشئ وعقيدته وشخصيته كما قال الصادق المعصوم:

«كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» (رواه البخارى).

وقد استعرضنا فيما سبق بعض المبادئ التى أمر الحبيب المصطفى الآباء أن ينشئوا عليها أولادهم ونستكمل هنا بعض النماذج من هديه الشريف فى صقل الأبناء وتعويدهم السلوك الحميد:

– يظهر الآباء بمظهر الصدق ليكونوا قدوة لأبنائهم:

– عن عبد الله بن عامر رضى الله عنه قال: دعتنى أمى يومًا ورسول الله ﷺ قاعد فى بيتنا فقالت: يا عبد الله تعال حتى أعطيك. فقال لها عليه الصلاة والسلام:

«ما أردت أن تعطيه؟ قالت: أردت أن أعطيه تمرًا. فقال: أما أنك لو لم تعطه شيئًا، كتبت عليك كذبة».

ومن هنا كان تقريع الشاعر فيمن يخالف فعله قوله:

يا أيها الرجل المعلم غيره
هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذى السقام وذى الضنى
كيما يصح به وأنت سقيم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها
فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يُقبل ما وعظت ويقتدى
بالعلم منك وينفع التعليم

حقًا إن النبى ﷺ كان الترجمان الحى لفضائل القرآن والصورة المتحركة لتوجيهاته حية وهو الذى قال عن نفسه الشريفة: «أدبنى ربى فأحسن تأديبى».

فهو الأسوة الحسنة والرحمة المهداة والنور الذى يضئ للحيارى والتائهين.

- سلوك سبيل الرحمة مع الأبناء لتكون منهاجهم فى الحياة.

- روى النسائى والحاكم: بينما كان رسول الله ﷺ يصلى بالناس إذ جاءه الحسين، فركب عنقه وهو ساجد فأطال السجود بالناس حتى ظنوا أنه قد حدث أمر. فلما قضى صلاته قالوا: قد أطلت السجود يا رسول الله حتى ظننا أنه قد حدث أمر. فقال: إن ابنى قد ارتحلنى - أى جعلنى كالراحلة فركب على ظهرى - فكرهت أن أعجله حتى يقضى حاجته.

- وجاء فى الاصابة: أنه ﷺ كان يداعب الحسن والحسين رضى الله عنهما فيمشى بهما ويقول:

«نعم الجمل جملكما ونعم العدلان أنتما».

وعن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال:

«إنى لأدخل فى الصلاة وأنا أريد إطالتها فأسمع بكاء الصبى فأتجوز فى صلاتى (أى أختصر) مما أعلم من وجد أمه من بكائه».

- وفى الصحيحين عن أنس رضى الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام مرَّ على صبيان فسلَّم عليهم وقال: كان رسول الله ﷺ يفعله.

- اختيار الصديق الصالح للأبناء:

قال ﷺ: **«المرء عل دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل».**

فصديق الأبناء لابد أن يكون صالحًا تقيًا حتى يكتسبوا منهم الخصال الحميدة.

ومن وصية ابن سينا فى تربية الولد: «أن يكون مع الصبى فى مكتبه صِبيةٌ، حسنة آدابهم، مرضية عاداتهم، لأن الصبى ألقن وهو عنه آخذ وبه آنس».

ولا شك أن تأديب الولد وملاحقته منذ الصغر بتهيئة البيئة الصالحة له هى التى

تعطى أفضل النتائج وأطيب الثمرات.

بينما التأديب فى الكبر فيه من المشقة الكثير حيث تكون العادات قد ترسخت فى الوجدان وطبعت السلوك بطابعها.

قد ينفع الأدب الأولاد فى صغر
وليس ينفعهم من بعده أدب
إن الغصون إذا عدلتها اعتدلت
ولا تلين - ولو لينته الخُشُب

- تلقين الأولاد أحكام الحلال والحرام:

- عن ابن عباس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«... ومروا أولادكم بامتثال الأوامر واجتناب النواهى فذلك وقاية لهم من النار».**

- وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال:

«مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين واضربوهم عليها وهم أبناء عشر وفرقوا بينهما فى المضاجع».

- عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال:

«من الكبائر شتم الرجل والديه. قيل يا رسول الله: وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: نعم، يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه»

- عن عمر بن أبى سلمة رضى الله عنهما قال: كنت غلامًا فى حجر رسول الله ﷺ - أى تحت رعايته- وكانت يدى تطيش فى الصحفة (أى تتحرك هنا وهناك فى القصعة) فقال لى رسول الله ﷺ: **«يا غلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك».**

ولنقرأ معًا تلك الآيت القرآنية الجامعة الشاملة التى تبلغ الذروة فى تأديب الأب لأولاده والاخذ بيدهم إلى مدارج الإيمان:

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ

(١٤) وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلي ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون (١٥) يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير (١٦) يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور﴾ [لقمان: ١٣-١٧].

ذلك هو منهج الإسلام فى إصلاح الأبناء: فالأبناء نعمة من الله وهبنا إياها، وأمانة استخلفنا فيها فلا يجب أن نتبع فيهم الهوى ونلهو ونلعب معهم وبهم ونقضى الوقت بين التليفزيون والسينما والنادى والمسرح والمصيف، بل هى قوانين محددة وأوامر صادرة من الملأ الأعلى تحدد المسار والهدف فهم غرس الحياة، وإذا حسن الغرس وطاب الماء الذى يسقى به والغذاء الذي يغذى به طاب الجنى وحققت الرسالة الإسلامية أهدافها وأصبحت شعوبها خير أمة أخرجت للناس.

وتعال معى أخى المسلم لنجول فى رياض القرآن ونرى كيف تعامل الأنبياء مع أبنائهم وماذا كان شغلهم الشاغل عند الموت بالنسبة لأبنائهم وماذا كان سلوكهم معهم فى حياتهم.

أنبياء وأبناء:

إن الأنبياء هم الأسوة الحسنة لنا لمن كان يبغى الله ورسوله لأنهم يعيشون حياتهم لله وبالله ومن الله فهم الصفوة المختارة من خلق الله جاهدوا هوى النفس وشهوات القلوب وامتلأت قلوبهم وعقولهم نوراً بذكر الله واشتاقت نفوسهم إلى الملأ الأعلى فتضاءلت الدنيا بزينتها وزخرفها فى نفوسهم وأصبحت لا تساوى عندهم جناح بعوضة.

ولما كان المال والبنون هما زينة الحياة الدنيا كما أخبرنا بذلك المولى عزَّ وجلَّ فإن أنبياء الله ورسله الكرام قد أعرضوا عنهما من باب إعراضهم عن كل زينة الدنيا ولكنهم أقبلوا عليهما من باب أداءالأمانة والباقيات الصالحات خير عند الله.

- فها هو ذا سيدنا إبراهيم الذى رزقه الله الذرية بعد فقدان الأمل من تحقق هذا الأمر لأنه بلغ من العمر عتياً، ومع ذلك لم يشغله حبه واشتياقه لتلك الذرية عن تنفيذ

أوامر الله فذهب طائعاً ملبياً راضياً ليضع فلذة كبده فى صحراء جرداء لا زرع فيها ولا ماء ومع ذلك كان شغله الشاغل ودعاؤه الملح أن يجعله ربه مقيم الصلاة وكذلك ذريته، فالصلاة عماد الدين وهى أهم ما فى الحياة، بل هى الحياة نفسها لأنها صلة بين العبد وربه فما بالك إذا كان هذا العبد هو خليل الله وأبا الأنبياء إبراهيم، فلابد أنه كان يعرف لذة المناجاة وحرارة الوصال وقمة الذوبان فى الصلاة لذلك كان حريصاً عليها أشد الحرص وحريص على إقامة أولاده لتلك الصلاة حتى وهو يضعهم فى مكان ليس فيه أدنى ضرورات الحياة: لا مسكن ولا مأوى ولا طعام ولكنه طلب لهم أولاً غذاء الروح وهى الصلاة ثم غذاء الجسد وهى الثمرات فاسمع معى إلى تلك الآيات القرآنية التى تبين قمة جهاد النفس لأب نبى ينفذ تعاليم ربه ولا يبالى بتعلق نفسه بابنه الوحيد الذى اشتاق إليه عمره كله.

قال تعالى فى كتابه الكريم:

﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون (٣٧) ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء (٣٨) الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء (٣٩) رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء﴾ [إبراهيم: ٣٧- ٤٠].

وهذا ابتلاء آخر لسيدنا إبراهيم تهون دونه الابتلاءات وتصغر بجانبه المصائب فقد أراد الله أن يجعل قلب سيدنا إبراهيم خالصاً لله ليس فيه أدنى ذرة من حب الأبناء، وأراد أن يضرب للمؤمنين مثلاً أعلى تتضاءل الأعناق دونه فى حب الله ومرضاته وتنفيذ أوامره حتى لو كان هذا الأمر هو ذبح الغلام الحليم الذى يملأ القلب والعين فى شبابه ودماثة خُلقه وإيمانه بالله:

﴿فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين (١٠٢) فلما أسلما وتله للجبين (١٠٣) وناديناه أن يا إبراهيم (١٠٤) قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين﴾ [الصافات: ١٠٢- ١٠٥].

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١)﴾

[الصافات: ١٠٦ - ١١١].

وإذا كان إسماعيل قد سلَّم مع أبيه لأمر الله فإنه قد رحم نفسه قبل أى شىء وأرضى ربه ودخل فى زمرة الصالحين، وفاز بثواب الدنيا والآخرة. أما أنبياء الله فإنهم يصدعون بأمر الله حتى لو كلفهم ذلك التضحية بأبنائهم، فحب الابن لا يساوى شيئًا مذكورًا بجانب حب الله، وسرعان ما يتلاشى ذلك الحب أمام طوفان رحمة الله والقيام برسالته على خير وجه- جاء الطوفان وأمره الله بأن يحمل معه المؤمنين فى السفينة التى كان قد صنعها، وبعاطفة الأبوة كان ينادى ابنه أن يسلك معه طريق الإيمان ولا يكون مع الكافرين ولكن ابنه رفض وأصر على عناده حتى كان من المغرقين وعندما ناشد نوح ربه أن يهبه ابنه الضال المعاند، أخبره الله أنه عمل غير صالح وأن الإيمان وطريق الله يفصل بينهما، هنا استغفر نوح ربه وطلب منه المغفرة والرحمة على سؤاله ما ليس له به علم والقى عاطفة الأبوة وراء ظهره لأن رسالة الحق والخير والنور أعظم من أى عاطفة لا تقام على تلك المفاهيم السامية:

قال تعالى فى كتابه الكريم عن موقف نوح من ابنه وتعظيمه أمر ربه على ما سواه:

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (٤٠) وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (٤١) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤) وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧)﴾ [هود: ٤٠ - ٤٧].

- وهذا سيدنا يعقوب يسير على درب الأنبياء هدفه الأسمى هو الذات العليا يتصرف مع أبنائه من هذا المنطلق فيأخذ بيد من يجد فيه سموًا فى الروح ويوجهه إلى معراجه الروحى ويصبر على تصرفات الطائشين منهم الذين ضلوا السبيل عسى الله أن يهديهم بفضله ورحمته، فهو نبى عليه أن يصدع بما يؤمر وهو مذكر ليس على البشر بمسيطر وأن الله يهدى من يشاء، فأبناؤه بالنسبة له جزء من رسالته فى الحياة يتصرف معهم من منطلق الدعوة إلى الله وتحرير الإنسانية من رق البشرية إلى سمو العبودية لله، وهكذا عندما جاءه ابنه يوسف وقص عليه رؤيته التى رآها فى المنام أحس سيدنا يعقوب بنور النبوة أن تلك رؤيا حق وأن ابنه سيكون له شان فى موكب النور فوجهه الوجهة السليمة بأن لا يقص تلك الرؤيا على إخوته وأن يأخذ حذره من الشيطان لأنه عدو مبين للإنسان وأن يجتهد فى مرضاة الله حتى يجتبيه ربه ويعلمه من فيضه الكريم ويتم نعمته عليه كما أتمها من قبل على خليل الأنبياء إبراهيم ومن صلح من ذريته:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤) قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٥) وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦)﴾

[يوسف: ٤ - ٦].

وبفراسة الأنبياء وصبرهم الجميل نجده يتقبل طيش أبنائه بقوله:

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١٨)﴾

[يوسف: ١٨].

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣)﴾ [يوسف: ٨٣].

هذا الأب النبى الذى جاهد فى حياته كما أمره ربه وقاسى الأمرين من نزغات نفوس البشر وفقد بصره على غياب ابنه يوسف.. ماذا كان يشغله عند موته؟ هل بكى على فراقهم؟ هل وفر لهم رغد الحياة أو رتَّب لهم أمور المعاش والميراث؟ هل كان يدللهم بعد ما اجتمع شمل الأسرة بعد غياب؟

أبدًا إن شغله الشاغل كان توطيد أركان الدين فى نفوسهم حتى لا تزيغ بعد العطاء ولا تنضب بعد الغيث فتلك مهمة الأنبياء: بناء النفوس حتى فى أحلك اللحظات، فلابد من تبليغ الرسالة وأداء الأمانة حتى لو كان النبى يصارع سكرات الموت:

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣) ﴾

[البقرة: ١٣٢، ١٣٣].

فسلام الله على أنبيائه الذين جاهدوا فى الله حق جهاده وأناروا لنا السبيل لنستنير بهديهم ونجاهد نفوسنا ونحذو خطاهم لإرساء قواعد الحق التى تبنى أجيالاً مسلمة على مبادئ الإيمان السليم والطريق القويم.

فاللهم اهدنا بهداك وجنبنا فتنة المحيا والممات وطهر قلوبنا من الشهوات واعمرها بنور القرآن الكريم. وإنا ندعوك بدعوة النبى العابد داود الذى كان يدعوك فيقول:

«اللهم إنى أسألك أربعًا وأعوذ بك من أربع: أسألك لسانًا ذاكرًا وقلبًا شاكرًا وبدنًا على البلاء صابرًا وزوجة تعيننى على أمر دينى ودنياى. وأعوذ بك من مال يكون وبالاً علىّ ويتمتع به غيرى ومن ولد يكون علىّ سيدًا ومن جار إذا رأى منى خيرًا أنكره وإذا رأى سوءًا أذاعه ومن زوجة تشيبنى قبل المشيب».

– أما سيدنا محمد ﷺ فهو أكرم الخلق وسيد المرسلين وخير المعلمين، لم يشغله شاغل عن الله وضرب لنا المثل الأعلى فى الاتصال بالله وهو الذى كان يدعو الله:

«اللهم اجعل قوت آل محمد كفافًا».

فهو لم يرض لهم الدنيا كما لم يرضها له الله فالانشغال بالطعام والشراب يبعد عن مرضاة الله والمعراج الروحى.

وهو الذى رفع شعار: «يكون بيت النبوة أول من جاع إذا جاع الناس وآخر من يشبع إذا شبع الناس».

وهو الذى رفض أن يعطى ابنته خادمًا رغم مشقة الحياة عليها ونصحها بأن تستعين على ذلك بذكر الله وقسم العمل بينها وبين زوجها علىّ رضى الله عنه.

وهو الذى كان يوقظ أهل بيته لصلاة الفجر ويقول لهم:

«يريد الله أن يذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرًا».

وهو الذى دعا أهل بيته إلى العمل والاجتهاد فى مرضاة الله وعدم الاتكال على ميراث النبوة فقال:

«يا فاطمة بنت محمد اعملى فإنى لا أغنى عنك من الله شيئًا».

وهو الذى تمسك بإقامة حدود الله وغضب عندما تشفع أسامة بن زيد فى حد من حدود الله وقال صلوات ربه وسلامه عليه:

«لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها».

وهذا منتهى التسامى فى حب الله فالأبناء ليست غاية وإنما أمانة ووسيلة لمرضاة الله. فمهما بلغ حبه لابنته فاطمة فلن يقف هذا الحب عقبة أمام تنفيذ أوامر الله وحفظ حدوده وكيف لا وهو معلم البشرية الأعظم وهو القائل صلوات ربى وسلامه عليه:

«إقامة حد من حدود الله خير من مطر أربعين ليلة فى بلاد الله».

(رواه ابن ماجة عن ابن عمر رضى الله عنهما).

وهو القائل ﷺ:

«لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ماله وولده والناس أجمعين».

(رواه البخارى ومسلم).

هذا مطلوب من المسلم: أن لا يكمل إيمانه حتى يكون حب الرسول وشريعته مقدمًا على حب المال والولد والناس كلهم.. أما الرسول الذى كان خلقه القرآن وأدبه فأحسن تأديبه فقد كان حب الله وشريعته والقيام بالرسالة التى كلفه الله بها أحب إليه من كل الدنيا وما فيها حتى أنه قال لعمه فى بداية الدعوة قولته التى تشع يقينًا وتصميمًا وحبًا فى الله:

«والله يا عمى لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر أو أهلك دونه ما تركته أبدًا».

وهو الذى ضرب لنا المثل الأعلى عند وفاة ابنه إبراهيم حيث لم يرض أن ينسب أى -

فضل لنفسه أو ذريته حينما شاع بين الناس تأثر السماء لموت إبراهيم وكسوف الشمس:

فقال ﷺ:

«إن الشمس والقمر لآيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله وإلى الصلاة».

وعندما أرسلت له ابنته زينب أن ابنها قد احتضر فاشهدنا -أرسل عليه الصلاة والسلام يقرئ السلام ويقول:

«إن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل شيء عنده بأجل مسمّى فلتصبر ولتحتسب».

صلى عليك الله يا علم الهدى:

أنت مصباح كل فضل
فما تصدر إلا عن ضوئك الأضواء
كل فضل فى العالمين فمن فضل
النبى استعاره الفضلاء

إن الكلام عنك يا سيدى يا رسول الله هو الكلام عن شريعتك السامقة الباسقة التى تطاول عنان السماء وأنّى لنا ذلك وهو أمر تتطاول الرقاب دونه وتُبهر العيون من النظر إليه.

وكل ما يسعنا الكلام عنه هو الدعاء إلى الله أن يرزقنا حبك وحب من يحبك وأن يرزقنا اتباع شريعتك الغراء فهذا هو الفوز العظيم والنجاة من كل كرب جسيم:

إن الذى لا يتبع الشرع مطلقًا
على كل حال عبد نفس وشهوة
صريع هوى يُبكى عليه لأنه
هو الميت ليس الميت ميت الطبيعة
وما فى طريق القوم بدءًا ولا انتها
مخالفة للشرع فاسمع وانصت

وخل مقالات الذين تخبطوا
ولا تكُ إلا مع كتاب وسُنة
فثم الهدى والنور والأمن من ردى
ومن بدعةٍ تُخشى وزيغ وفتنة
ومتبعو حكم الكتاب وسنة
هم المفلحون الفائزون بجنةٍ
عليهم من الرحمن رضوانه الذى
هو النعمة العظمى وأكبر مِنَّةٍ
ومن حاد عن علم الكتاب وسُنة
فبشره فى الدنيا تجزي وذلةٍ
وبشره فى العقبى بسكنى جهنم
وحرمان جنات الخلود ورؤية

منهج الإسلام فى علاج الغلو فى حب الأبناء

إن الإسلام واضح أشد الوضوح وحازم أشد الحزم تجاه الغلو فى حب الأبناء: فالأولاد مثلهم كأى نعمة من نعم الحياة التى وهبها الله لنا تحمل فى طياتها وجهى العملة: فمن ناحية لنا حق الاستمتاع بتلك النعمة ومن ناحية أخرى علينا أداء شكرها وحقها لله عز وجل، والنعم على كل حال هى وسيلة من وسائل استقرار الإنسان فى الحياة الدنيا والقيام برسالته فيها.

أما الغاية الكبرى فى الحياة ففى عبادة الله وحده سبحانه وتعالى وأداء حقوق الربوبية والسعى إلى مرضاته باتباع أوامره واجتناب نواهيه والسير على منهجه وصراطه المستقيم ما وسعنا الجهد.

ويوم أن تتحول الوسيلة إلى غاية فهذا هو الشرك بالله: الشرك فى محبته وعدم إخلاص القلب له وحده. وهذه هى الطامة الكبرى والمنزلق الخطير الذى يمكن أن ينحدر

إليه المرء بسهوله وهو ما وصفه الرسول ﷺ بأنه أخفى من دبيب النملة.

ولذلك فقد كانت تعليمات القرآن صارمة تجاه تفضيل حب الأبناء عن الجهاد فى سبيل الله ومرضاته وإعلاء راية الحق.

قال تعالى فى كتابه الكريم:

﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤) ﴾ [التوبة: ٢٤].

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢) ﴾ [المجادلة: ٢٢].

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (١٠) ﴾ [آل عمران: ١٠].

﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (٣٧) ﴾ [سبأ: ٣٧].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) ﴾ [المنافقون: ٩].

﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣) ﴾

[الممتحنة: ٣].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) ﴾

[التغابن: ١٤، ١٥].

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨) ﴾ [الأنفال: ٢٨].

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥) ﴾ [التوبة: ٥٥].

﴿ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٧) ﴾ [المجادلة: ١٧].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٣٣) ﴾

[لقمان: ٣٣].

وهكذا تبين الآيات بوضوح ليس فيه لبس وتكرار يدعو إلى تعميق الوعى فى الوجدان أن الأموال والأولاد والأزواج والأهل والأقارب وجميع من فى الأرض وما فى الأرض عرض زائل ومحك اختبار عظيم لدرجة إيمان المؤمن بربه واتباعه لمنهجه، فيجب على المؤمن الحق الذى رضى الله ربًا والإسلام دينا ومحمد ﷺ نبيًا ورسولاً الا ينشغل بمادة اختباره ويتلهى بها بما يعوقه عن أداء الأمانة التى حملها عن الله فيصبح ظلومًا جهولاً.

فالأولاد لن تغنى شيئًا يوم العرض العظيم إلا بمقدار الجهد والتضحية الذى بذله الآباء والأمهات فى حدود منهج الله ورسوله، وليحذر الآباء والأمهات الافتتان بحب الأبناء لأن هذا الحب يعمى ويصم عن اتباع طريق الحق ويقف حجر عثرة أمام اكتمال إيمان المرء كما نبأنا بذلك حبيب الحق وسيد الخلق صلوات ربى وسلامه عليه.

- روى البخارى عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف النار».

- روى البخارى كذلك أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال للنبى ﷺ: لأنت يا رسول الله أحب إلىّ من كل شىء إلا نفسى التى بين جنبى. فقال النبى ﷺ:

«لن يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه» فقال عمر: والذى أنزل عليك الكتاب لأنت أحب إلىّ من نفسى التى بين جنبى.

فقال له النبى ﷺ:

«الآن يا عمر». أى الآن كمل إيمانك.

- وثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال:

«لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به».

- روى البخارى ومسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ماله وولده والناس أجمعين».

حقًا إن الله قد غرز فى الإنسان حب الأبناء حتى يدفعه هذا الحب إلى تحمل ما يلاقيه من مشقة وجهد فى تربية الأولاد ويساعده على أداء رسالته فى الحياة نحوهم.

ولكن الله سبحانه وتعالى يريد لتلك الغريزة الاعتدال والوسطية فلا إفراط فى حب الأبناء يبعد الإنسان عن منهج الله ويعرضه للحساب العسير ولا تفريط فى حبهم والتقصير فى حقهم بما يعرضهم للضياع فى خضم الحياة.

فالإسلام يحتاج إلى أجيال يقظة نامية تستطيع تحمل أعباء الرسالة، ويحتاج إلى أرواح سامية تتوق إلى الملأ الأعلى وتنشد الحب الإلهى وتتذوق لذة اتصال الأرض بالسماء. ولن يتحقق ذلك إلا بحب الله ورسوله أولاً حبًا يملأ القلب والوجدان ثم اتباع المنهج الذى حدده المولى الكريم فى قرآنه العظيم وفسره الرسول الحبيب بسنته الرشيدة قولاً وعملاً.

والرسول ﷺ هو الرحمة المهداة إلى البشرية وهو الأسوة الحسنة لمن كان يبغى الله ويريد فلاحًا فى الدنيا والآخرة.

فكل ما أرشدنا إليه الحبيب المصطفى هو لمعالجة شهوات الإنسان وحمايته من نيران الدنيا والآخرة، فكما قال أحد الصالحين:

صورة الآدمى فى الانكباب على شهوات الدنيا صورة الفراش فى التهافت على النار إذ تلوح للآدمى أنوار الشهوات من حيث ظاهر صورتها ولا يدرى أن تحتها السم الناقع القاتل، فلا يزال يرمى نفسه عليها إلى أن ينغمس فيها ويتقيد بها ويهلك هلاكًا مؤبدًا. فليت كان الآدمى كجهل الفراش، فإنها باغترارها بظاهر الضوء إن احترقت تخلصت فى الحال، والآدمى يبقى فى النار أبد الآباد ومدة مديدة.

ولذلك كان رسول الله ﷺ ينادى ويقول:

«إنى ممسك بحجزكم عن النار، وأنتم تتهافتون تهافت الفراش».

فاللهم ارزقنا اتباع نبيك الحبيب حتى نخرج من أسر نفوسنا وشهواتها إلى رحاب رضوانك ووفقنا إلى ما فيه رضاك إنك نعم المولى ونعم النصير فنحن لا نستعين إلا بك ولا نستنصر بأحد دونك، ونضع نصب أعيننا وملئ قلوبنا عظمتك وقدرتك ونعى بقلوبنا وأرواحنا ذلك الحديث القدسى الذى أوحيت به إلى سيدنا داود العبد الأواب حيث قلت له:

«يا داود: أما وعزتى وجلالى لا يستنصر بى عبد من عبادى دون خلقى أعلم ذلك من نيته فتكيده السماوات السبع ومن فيهن، والأرضون السبع ومن فيهن، إلا جعلت له منهن فرجًا ومخرجًا، أما وعزتى وجلالى وعظمتى لا يستعصم عبد من عبادى بمخلوق دونى، أعلم ذلك من نيته إلا قطعت أسباب السماوات السبع من يده وأسخت (خسفت) الأرض من تحته ولا أبالى فى أى واد هلك».

حقًا إن شرف العبد ورفعة قدره إنما تكون بنظره إلى ربه عز وجل وإقباله عليه وسكونه إليه واعتماده عليه. ودناءته وخسته، وسقوطه من عين الله تعالى إنما تكون بنظره إلى نفسه وإقباله على غيره واستناده إلى سواه.

فاللهم لا تجعلنا ممن تشغلهم أموالهم وأولادهم عن ذكر الله واجعل قلوبنا معك وهمتنا إليك وأعنّا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك وأن نقوم برسالتنا فى الحياة على خير وجه يرضيك يا ربنا فرضاك خير من الدنيا وما فيها يا مالك النفس قاصيها ودانيها.

ثالثًا: المعالجة الإسلامية

لشهوة المال

عندما ذكرنا الآية الكريمة فى بداية حديثنا عن تعريف الشهوات:

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ ﴾

[آل عمران: ١٤].

وجدنا أن أنواع الشهوات الإجمالية التى ذكرها المولى عز وجل فى كتابه الكريم هى ست شهوات اثنتان منها يتعلقان بالنساء والبنين والأربع الأخريات تتعلق بالأموال سواء السائلة أو العينية وهذا ما دفعنا إلى إدماجها تحت بند واحد فى المعالجة لأن الله سبحانه وتعالى ذكر فى آية أخرى:

﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (٤٦) ﴾ [الكهف: ٤٦]. فالمال سواء كان سائلاً أو عينيًا له بريقه الأخاذ الذى يأخذ الأفئدة والألباب ولذلك لم يذكر الله المال فى القرآن إلا على أنه عرض زائل والباقيات الصالحات خير عند الله، أو على أنه فتنة على طريق الإنسان المؤمن يبتلى على درجة إيمانه، أو على أنه عدو يشغل الإنسان عن ذكر الله ويقوده إلى دركات من النيران لا يستطيع الفكاك منها ولا ينفع ساعتها ندم.

فالمال فى أحسن أحواله هو أمانة عند المؤمن عليه أن يتصرف فيه بمنطلق إلهى حدده له فى شريعة الإسلام: من زكاة وصدقات وتكافل اجتماعى بين المسلمين فى الأعياد والأفراح والمصائب والكوارث.

أما الإنفاق اليومى للمسلم فهو يخضع أيضًا لتنظيم وربانى حدده له فى كتابه الكريم:

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (٦٧) ﴾ [الفرقان: ٦٧].

فالمال بلا شك هو قوام الحياة وهو أمانة عظمى جاء الأمر بانفاقه بعد الأمر بالإيمان بالله ورسوله.

﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) ﴾ [الحديد: ٧].

وكل نفقة صغيرة أو كبيرة يعلمها الله:

﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (٢٧٠) ﴾

[البقرة: ٢٧٠].

﴿ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١) ﴾ [التوبة: ١٢١].

ولتلك الأهمية الخطيرة للمال سواء كانت غريزة حب المال المخلوقة فى الإنسان أو أهميته فى الحياة فقد جاء شرع الله ليحكم الاتجاهين المتعارضين ويقيم توازنًا بينهما، فهذا الميزان هو أساس الحياة:

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) ﴾ [الرحمن: ٧ - ٩].

ونظرًا لقوة شهوة حب المال وحتى تكون كفتى الميزان فى نسق متوازن فقد وضع الإسلام مجموعة صارمة من القوانين تنظم تداول الأموال فى المجتمع الإسلامى وتصل فى النهاية إلى كبح جماح شهوة المال لأنها لو ترك لها العنان لدمرت المجتمع ووصلت به إلى الدرك الأسفل من جحيم الدنيا وسعارها.

من تلك القوانين التى وضعها الشرع الحكيم: الإجمال فى طلب المال وتحصيله.

- الحذر من حب المال والتهالك عليه.
- ضرورة اكتساب المال من حلال.
- تحريم الربا.
- تحريم الاحتكار.
- تحريم الغش.
- تحريم التلاعب فى الكيل والميزان.
- تحريم السرقة والغلو.
- تنظيم الدين.
- فرض الزكاة والصدقات كأساس لتداول الأموال فى المجتمع الإسلامى.

وسنتناول بمشيئة الله وعونه تلك النقاط بشىء من التفصيل لتبيين عظمة الخالق فى إرساء مجتمعاتنا على دعائم متينة من الحق والعدل والأمن وعظمة رسوله فى تبليغ الرسالة وأداء الأمانة وتفصيل ما أجمله القرآن الكريم تفصيلاً يناسب التغيرات فى ظروف المجتمع والمتغيرات فى نفوس البشر بما يحقق للمجتمع التقدم المنشود فى سهولة ويسر.

فلنرهف أسماعنا ونفتح قلوبنا وعقولنا لنتلقى تلك الفيوضات التشريعية العظيمة التى فيها الخير والنجاة والفلاح لنا جميعًا بعون الله وتوفيقه.

أحكام المعالجة الإسلامية لشهوة المال

١- الإجمال فى طلب المال وتحصيله:

يقول الصادق المعصوم صلوات ربى وسلامه عليه:

«إن هذا المال خضر حلو، ونعم صاحب المسلم هو، لمن أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل، وإن من يأخذه بغير حقه كمن يأكل ولا يشبع ويكون عليه شهيدًا يوم القيامة».

حقًا إن المال (خضر حلو) لأنه قوام الحياة وعليه تقوم حضارات الأمم ورفاهية الشعوب، وهو للمسلم نعم الصاحب والمعين ما دام يُعطى المكرمات حقها ويرعى به وفيه حقوق الآخرين التى فرضها الله لهم.

وما دام لا يؤخذ انتهابًا أو اغتصابًا بل يؤخذ بحقه ويُنال بوسائله المشروعة التى تضبطها قواعد الإيمان من شرف وعفة وأمانة.

والمال الذى يدخل جيوبنا ثروة ويخرج منها نفقة سيكون علينا شهيدًا يوم القيامة وبالتالى سيقرر مصيرنا فى الدار الآخرة علاوة على دوره الحيوى والفعال فى دار الدنيا.

وإليك أخى المسلم مجموعة من الأحاديث النبوية الشريفة التى لا تعالج قضايا المال بأسلوب الأرقام الذى يعالجها به فلاسفة الاقتصاد والاجتماع بل يعالجها بروح الرسول وبصيرة المعلم، حيث لا يربط مشاكل الثروة والمال بحركة الأسواق وحركة التاريخ بل يربطها بحركة الضمير ونبع الروح وشريعة الله المقدسة.

- عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«لا تستبطئوا الرزق فإنه لم يكن عبد ليموت حتى يبلغ آخر رزق له فأجملوا فى الطلب»: «أخذ الحلال وترك الحرام».

- روى عن الحسن بن على رضى الله عنهما قال: صعد رسول الله ﷺ المنبر يوم غزوة تبوك فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

«يا أيها الناس إنى ما آمركم إلا بما أمركم الله به ولا أنهاكم إلا عما نهاكم الله عنه فأجملوا فى الطلب، فوالذى نفس أبى القاسم بيده إن أحدكم ليطلبه رزقه كما يطلبه أجله، فإن تعسر عليكم شىء منه فاطلبوه بطاعة الله عز وجل».

- وعن أبى ذر رضى الله عنه قال: جعل رسول الله ﷺ يتلو هذه الآية:

﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ (٣)﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، فجعل يرددها حتى نعست. فقال: **«يا أبا ذر: لو أن الناس أخذوا بها لكفتهم».**

- وعن حبة وسواء ابنى خالد رضى الله عنهم أنهما أتيا رسول الله ﷺ وهو يعمل عملاً - يبنى بناء - فلما فرغ دعانا فقال:

«لا تنافسا فى الرزق ما تهزهزت رءوسكما فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشر ثم يعطيه الله ويرزقه».

- وعن أبى الدرداء رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«ما طلعت شمس قط إلا بُعث بجنبتيها ملكان يناديان يُسمعان أهل الأرض إلا الثقلين: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم فإن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى، ولا آبت شمس قط إلا بعث بجنبتيها ملكان يناديان يسمعان أهل الأرض إلا الثقلين: اللهم اعط منفقًا خلفًا واعط ممسكًا تلفًا».

- وعن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«من كانت الدنيا همته وسدمه (طلبه ورجاؤه) ولها شخص وإياها ينوى جعل الله الفقر بين عينيه وشتت عليه ضيعته، ولم يأته منها إلا ما كتب له منها، ومن كانت الآخرة همته وسدمه ولها شخص وإياها ينوى جعل الله عز وجل الغنى فى قلبه وجمع عليه ضيعته وأتته الدنيا وهى صاغرة».

- وروى عن ابن عباس رضى الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ فى مسجد الخيف فحمد الله وذكره بما هو أهله ثم قال:

«من كانت الدنيا همه فرّق الله شمله وجعل فقره بين عينيه ولم يؤته منها إلا ما كتب له».

- وعن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«أربعة من الشقاء: جمود العين، وقسوة القلب، وطول الأمل، والحرص على الدنيا».

- وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال:

«لا ترضين أحداً بسخط الله، ولا تحمدن أحداً على فضل الله ولا تذمن أحداً ما لم يؤتك الله، فإن رزق الله لا يسوقه إليك حرص حريص ولا يرده عنك كراهية كاره. وإن الله بقسطه وعدله جعل الروح والفرج فى الرضا واليقين وجعل الهم والحُزن فى السخط».

- وعن كعب بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«ما ذئبان جائعان أرسلا فى غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه».

- وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول:

«اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعاء لا يُسمع».

- وعن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى إليهما ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب».

وهكذا فإن الحبيب المصطفى ﷺ المعلم الأعظم للبشرية وهاديها إلى الطريق القويم يعلم بلا شك علم اليقين إغراء المال الشديد وشهوته الجامحة لدى البشر ويدرك ما تفرضه ضرورات العيش وجلبة المنافسة من تكالب وتهور واستماتة ومن ثم يذكر الناس برب المال وأنه استودع ذلك المال أمانة لديهم ويدعوهم إلى اتباع شريعة الله خلال زحفهم وعدوهم فى عالم التحصيل والارتزاق، وهذا تفصيل للدستور الإجمالى فى القرآ الكريم.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥)﴾ [الملك: ١٥].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩)﴾ [الجمعة: ٩].

فالمشى والاقتصاد والسمت للحياة الدنيا، أما السعى والشوق واللهفة فهو إلى ذكر الله، إلى حياة الروح والقلوب، إلى الدار الباقية حيث النعيم المقيم الذى يستحق بذل

الغالى والنفيس، أما الحياة الدنيا الفانية فلا تستحق اللهث والصراع والتطاحن لأن الأرزاق بيد الله الرزاق ذو القوة المتين، فالرزق غيب استأثر به الله فى علمه ينزله بقدر، ولو شاء لبسطه للناس فخزائنه لا تنفد أبداً ولكنه جل شأنه جعله غيبًا وابتلاءً واختبارًا لمن يؤمنون بالغيب وعلى ربهم يتوكلون ولا يحملنهم استبطاء الرزق على طلب المال من غير حله وبغير حق لأنه كما قال الصادق المعصوم:

«لا يعجبنك رحب الذراعين بالدم، ولا جامع المال من غير حله، فإنه إن تصدق به لم يقبل منه، وما بقى كان زاده إلى النار»!!.

إن الرسول ﷺ يرد على تلك النفوس التى لا تشبع وتقيس الغنى بأرقام العصر فيقول لهم:

«إن الغنى ليس عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس».

فالغنى ليس بالترف والرفاهية وإنما بالرضا واليقين وبركة الله.

وجميع الاقتصاديين أجمعوا على أن شقَّى المشكلة الاقتصادية هما الاحتياجات والموارد وحلها يكون إما بضغط الاحتياجات أو زيادة الموارد، ونظراً لصعوبة زيادة الموارد حتى على مستوى الدول فإن ضغط الاحتياجات هو الحل الأمثل غالبًا فإذا صاحب هذا الضغط عقيدة إيمانية تتوق إلى احتياجات أعظم وأعلى وهى احتياجات الروح فإن هذا الحل يكون أعلى درجة من الحل الأمثل.

فالقناعة التى أمرنا بها الإسلام هى أغلى كنوز الدنيا لأن رسولنا الكريم علمنا أن:

«من أصبح آمنا فى سربه معافى فى بدنه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها».

وعلمنا ألا يجرفنا تيار التطلع إلى ثراء الآخرين فأوصانا بقوله ﷺ:

«إذا نظر أحدكم إلى من يفضل عليه فى المال والرزق فلينظر إلى من هو أدنى منه، فذلك أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم».

وكيف نزدرى نعمة الله علينا وهو القائل عز وجل:

﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦)﴾ [فصلت: ٤٦].

فهناك عشرات النعم التى يتمنى كثيرون من الأثرياء أن ينالوها ولو بكل ثرواتهم ولكنهم لا يستطيعون.

فرزق الله واسع ومتنوع وليس الذين يقال لهم فى العطاء المادى بأدنى منزلة لديه ولكنه اختار لهم عطاءه الروحى فملأ قلوبهم بالغنى والخير، وهذا ما علمنا إياه أيضاً رسولنا الحبيب ﷺ عندما قال:

«إن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يُعطى الآخرة إلا من يحب».

فكن أخى المسلم على ثقة من عطاء الله وفضله وكرمه، فالرزق بيده وحده وهو الكريم فى إحسانه وجوده ولا يحملنك استبطاء الرزق على الخروج عن جادة الحق حتى ولو بقلبك ورتل دائمًا تلك الآيات البينات التى تملأ قلبك يقينًا بأن رزقك بيد الله وأنه جعل لكل شيء أجلاً محدوداً.

﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ (٢٣) ﴾ [الذاريات: ٢٢، ٢٣].

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ (٢٤) ﴾ [سبأ: ٢٤].

﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ (٦٢) ﴾ [العنكبوت: ٦٢].

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨]

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) ﴾

[يونس: ٣١].

﴿ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٦٤) قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ (٦٥) ﴾

[النمل: ٦٤، ٦٥].

﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (٢١) ﴾ [الملك: ٢١].

﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٠) ﴾

[العنكبوت: ٦٠].

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ (٣) ﴾

[الطلاق: ٢، ٣].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣) ﴾ [فاطر: ٣].

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ (٩٦) ﴾

[الأعراف: ٩٦].

﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٧) ﴾ [الشورى: ٢٧].

هذا يا أخى المسلم غيض من فيض من آيات الله البينات المعجزات التى تطمئن قلبك على أشد المسائل التى تشغل بال أى إنسان على وجه الأرض وهى مسألة الرزق وقد جعلها الله من المسائل الغيبية لحكم كثيرة أطلعنا على بعض منها وحَجَب ما لا طاقة لعقولنا على تحمله رحمة بنا.

وذلك حتى يعيش المؤمن مطمئنًا فى رحاب الله لا يفرح بما آتاه ولا يحزن لما فقده، فالرزق معلوم والأجل محدود وما رزقه الله به فهو أمانة مُحاسب عليها وما أنفقه لوجه الله فهو تكليف مجازى عليه بما هو خير.

وكل ذلك يجعل المؤمن كما أراده الله: يسعى فى ذكر الله ويمشى فى مناكب الدنيا: يجمل فى طلب المال وتحصيله فيأخذه من حله ولا يرتكب معصية فى سبيله.

فاللهم ارزقنا القناعة واليقين والرضا بما قسمته لنا حتى نكون أغنى الناس بفضلك ورحمتك.

٢- الحذر من حب المال والتهالك عليه:

إن تلك النقطة متعلقة بسابقتها بل هما توأمان لا ينفصلان، فالمال له ضراوة أشد وأنكى من ضراوة الخمر. فمن المهد إلى اللحد والنفس تواقة أبدًا إلى المزيد ثم المزيد من المال والثراء، ولذلك فإن الرسول ﷺ يكشف لنا عن جانب من طبيعتنا البشرية يحذرنا

دومًا من حب المال والتهالك عليه، ويدعونا إلى الحذر الشديد من تسلط هذه الآفة على مشاعرنا ومَسْلكنا. فيقول صلوات ربى وسلامه عليه:

«قلب الشيخ شاب على حب اثنتين: حب العيش وحب المال» (رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة)

ولذلك فإن الرسول ﷺ كان يتعوذ بالله من: «نفس لا تشبع».

لأنه يرى أن الحرص الذى تولده الرغبة المسعورة فى مزيد من المال يشكل خطرًا رهيبًا على ضمير المرء ودينه حتى إنه عليه السلام ليرى أن انطلاق ذئاب جائعة فى غنم هاجعة تمزق لحومها وتلتهمها أدنى ضررًا وأقل خطرًا مما يصنعه بدين المرء حرصه المسعور على جمع المال. كما رأينا فى الحديث الشريف فى النقطة السابقة، وهذا ما وضحه لنا القرآن الكريم فى مواضع مختلفة تسرد لنا هلاك الأشخاص الذين أحبوا المال حبًا جمًا، وعلى رأس هؤلاء الأشخاص قارون الذى آتاه الله من الكنوز ما تعجز العصبة أولو القوة عن حمل مفاتيحه فقط فما بال الكنوز نفسها. ومع ذلك فلم يحمد الله ويشكر فضله ويعمل صالحًا بل أعماه البطر وحب المال عن الانصياع لقول الحق فكان من المهلكين عظة وعبرة لكل من أحب المال وتهالك عليه ولم يقاوم شره نفسه وجشعها.

قال تعالى فى كتابه العزيز:

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢) تِلْكَ الدَّارُ

الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣)﴾

[القصص: ٧٦ - ٨٣].

وثانى تلك النماذج التى وضعها الله لنا عظة وعبرة لحب المال حبًا يعمى عن حق الله ومنهجه وشريعته هو نموذج أصحاب الجنة الذين ورثوا الحديقة عن أبيهم فبهرتهم بثمارها اليانعة وفجرت داخلهم تلك الرغبة المسعورة فى المزيد من الاستئثار بالنعيم ظنًا منهم أن منع الفقراء والمساكين من أخذ حقهم الذى فرضه الله لهم وكان يقوم بتنفيذه والدهم المؤمن سوف يعود بمزيد من الثراء عليهم، ولكن هيهات هيهات أن تترك العدالة الإلهية للنفوس الجشعة الحبل على الغارب يعيثون فى الأرض فسادًا ويشجعون غيرهم على مزيد من الشح فيشقى الفقراء بشح الأغنياء.

إن انتقام الله لقريب وينكل بتلك النفوس المريضة بحب المال حتى تكون عظة وعبرة لأولى الألباب، وقدرة الله ليس لها حدود فى الابتلاء إذا أراد شيئًا يقول له كن فيكون، فمجرد سواد الليل جاءتها ريح عاصف جعلتها كالصريم فأصبحوا نادمين محرومين، جزاءً وفاقًا لما بيتوه من نية حرمان المساكين. قال تعالى فى قرآنه العظيم:

﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ (٢٢) فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (٢٣) أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ (٣٠) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (٣١) عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢) كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٣٣)﴾

[القلم: ١٧ - ٣٣].

والنموذج الثالث: أحد المسلمين الذين عاصروا الرسول ﷺ وأحبت نفسه المال حبًا شديدًا حتى رفعته إلى طلب الدعاء من الرسول أن يغنيه الله من فضله، وحاول الرسول أن يعالج ذلك المرض النفسى ببيان أن قليل يؤدى شكره خير من كثير لا يقدر عليه. ولكن النفس الأمارة بالسوء المراوغة التى تدفع المرء إلى طريق الهلاك وهى تعلله بالأمانى الصالحة وأن المال فى يد المؤمن خير عظيم ينفق منه على الفقراء والمساكين.

وسار معه الرسول ﷺ بالدرس إلى نهايته وهو التطبيق العملى ليكون عظة لغيره من المؤمنين لأنه لن ينفع معه الإصلاح بعد ذلك، فدعا الله أن يغنيه، وكان هذا الغنى وبالاً على صاحبه إذ شغله أولاً عن صلاة الجماعة ثم الجمعة حتى طبع الله على قلبه وأصبح من المنافقين الذين يظهرون غير ما يبطنون، وهذا هو الخسران المبين لأن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار. إنها تجربة حية ناطقة ونهاية مخيفة مرعبة لكل من تشرف نفسه على حب المال وتوشك أن تدفعه إلى التهالك عليه فماذا تفيد ثروات الدنيا بأسرها إذا خسر المرء نفسه وضيَّع تعاليم ربه؟

اسمع معى إلى قول المولى عز وجل:

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [التوبة: ٧٥- ٧٨]

فاللهم لا تجعل الدنيا جل همنا ولا تجعل حب المال يدخل قلوبنا فيحجبنا عن آخرتنا واجعل الغنى فى قلوبنا فإنك على كل شىء قدير وبالإجابة جدير.

٣ - ضرورة اكتساب المال من حلال:

الحلال هو أول ما يعطى المال صفة القبول والاحترام وكل ثروة لا تأتى عن طريق الحلال فهى وبال على صاحبها.

فبعض الناس يظنون أن بعض الخير يصنعه بماله الحرام وكسبه المشبوه كفيل بأن يضع عنه وزره، وهذا بعيد كل البعد عن منهج الشرع الحنيف. ومن ثمَّ كان الرسول ﷺ حريصًا كل الحرص على فتح عيوننا على الخطر المحدق بكل كسب تغشاه الشبهة والريبة وتفيض أحاديثه الشريفة لتدعم حب الحلال واحترام المشروع فى قلوبنا.

فأرهف السمع أخى المسلم وأشهد قلبك على أقوال الحبيب المصطفى التى تنير قلوبنا وطريقنا ونحن نسير على درب الحياة بخطى مؤمنة تبتغى وجه الله ورسوله:

- عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن الله طيب لا يقبل إلا طيب وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١].

وقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]. ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يده إلى السماء: يارب يارب. ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذى بالحرام، فأنى يستجاب لذلك؟».

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال:

«طلب الحلال واجب على كل مسلم».

- وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال:

«طلب الحلال فريضة بعد الفريضة».

- روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال:

تُليت هذه الآية عند رسول الله ﷺ: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾** [البقرة: ١٦٨] فقام سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه فقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة، فقال له النبى ﷺ:

«يا سعد: أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة، والذى نفس محمد بيده: إن العبد ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه ما يُتقبل منه عمل أربعين يومًا، وأيما عبد ينبت لحمه من سُحت فالنار أولى به».

- وروى عن على رضى الله عنه قال: كنا جلوسًا مع رسول الله ﷺ فطلع علينا رجل من أهل العالية فقال: يا رسول الله أخبرنى بأشر شئ فى هذا الدين وألينه؟ فقال:

«ألينه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأشره يا أخا العالية: الأمانة، إنه لا دين لمن لا أمانة له ولا صلاة له ولا زكاة له. يا أخا العالية: إنه من أصاب مالاً من حرام فلبس منه جلبابًا يعنى قميصًا لم تقبل صلاته حتى ينحى ذلك الجلباب عنه، إن الله عز وجل أكرم يا أخا العالية من أن يقبل عمله أو صلاته وعليه جلباب من حرام».

- عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال:

«من اشترى سرقة وهو يعلم أنها سرقة فقد اشترك فى عارها وإثمها».

- وعنه أيضًا رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال:

«إذا أديت زكاة مالك فقد قضيت ما عليك ومن جمع مالاً حرامًا ثم تصدق به لم يكن له فيه أجر وكان إصره عليه».

- وروى أبو داود فى المراسيل عن القاسم بن مخيمرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«من اكتسب مالاً من مأثم فوصل به رحمه أو تصدق به أو أنفقه فى سبيل الله جمع ذلك كله جميعًا فقذف به فى جهنم».

- عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«يأتى على الناس زمان لا يبالى المرء ما أخذ: أمن الحلال أم من الحرام».

(رواه البخارى والنسائى وزاد رزين فيه: **«فإن ذلك لا تجاب لهم دعوة»**).

- وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«لا تغبطن جامع المال من غير حله، أو قال: من غير حقه، فإنه إن تصدق به لم يقبل منه وما بقى كان زاده إلى النار».

- وعن معاذ رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال:

«ما تزال قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيم أفناه؟ وعن شبابه فيم أبلاه؟ وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟ وعن علمه ماذا عمل فيه؟».

- وروى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«الدنيا خضرة حلوة من اكتسب فيها مالاً من حله وأنفقه فى حقه أثابه الله عليه وأورده جنته، ومن اكتسب فيها مالاً من غير حله وأنفقه فى غير حقه أحله الله دار الهوان، ورب متخوض فى مال الله ورسوله له النار يوم القيامة يقول الله:

﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

- وعن كعب بن عجرة رضى الله عنه قال: قال لى رسول الله ﷺ:

«يا كعب بن عجرة: إنه لا يدخل الجنة لحم ودم نبتا على سحت، النار أولى به، يا كعب بن عجرة: الناس غاديان، فغاد فى فكاك نفسه فمعتقها، وغاد فموبقها».

وهكذا فإن الحبيب المصطفى يذكرنا بمسئوليتنا تجاه أموالنا ويضع الميزان فى قلب المسلم وضميره، وفى مسائل المال خاصة ليس ثمة غموض، فمصادره المشروعة واضحة كالنهار، ولا عُذر لأكل الحرام، فالحلال بيِّن والحرام أكثر بيانًا وظهورًا.

فاللهم اجعل مطعمنا حلالاً، ومشربنا حلالاً، وكساءنا حلالاً، وارزقنا رزقًا حلالاً ترضاه وترضى به عنّا.

٤ - تحريم الربا:

إن المؤمن الصادق طيب يسعى إلى الطيبات ويتجنب الخبائث ولا ينمى لحمه من سُحت ولا يضاعف ثروته بالحرام كما رأينا فى منهج الشرع الحنيف. وعلى رأس آفات المال والثروة، آفة الربا، فهو جريمة شنعاء وقف ضدها الإسلام بعنف لأنها شهوة كامنة فى أعماق النفس البشرية يغذيها حب المال وكسل الإنسان فى الكسب السهل دون مخاطرة أو بذل جهد للاستثمار وتعمير الأرض وزيادة الإنتاج، هذه الشهوة تأصلت فى المجتمعات الإنسانية عبر العصور والأجيال. ولذلك كان لابد أن تُسن لها قوانين صارمة تقتلعها من جذورها لبناء مجتمع إسلامى على أسس سليمة صحية، ليس فيه استغلال بشع لحاجة الإنسان وضعفه وبؤسه، وليس فيه طبقة من الأثرياء الذين لا يضيفون انتاجًا فى مجتمعهم، وليس فيه أمراض اقتصادية تفت فى عضده وتهدم أركانه مثل التضخم والاحتكار و. . . إلخ.

وكيف لا تنشأ تلك الأمراض العاتية والربا فى أبسط تعريفاته هو زيادة نقدية لا يقابلها جهد أو إنتاج، ومعنى ذلك زيادة النقود فى أيدى الناس عن المعروض من السلع والخدمات وهذا هوالتضخم من أوسع أبوابه ولا يخفى على الجميع قبل المتخصصين ما يتعرض له المجتمع من انهيارات اقتصادية وخلقية واجتماعية وسياسية تجعله مضغة سهلة للدول ذات النفوذ والسطوة والأطماع الدولية التى لا تحدها حدود.

ولذلك فحرصًا من الإسلام على شعوبه التى تنتمى إليه وتحمل اسمه وحتى ترتفع راية الإسلام عالية خفاقة بين الأمم فقد كان النهى عن الربا وتحريمه نهيًا عنيفًا وأصبحت جريمة الربا تأخذ مكانها إلى جوار الشرك بالله وقتل النفس بغير حق. وكل مال يسهم الربا فى إنشائه وإنمائه فإنما ينتظره المحق الذى توعد الله فى قوله الفصل: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٦].

قال تعالى فى كتابه الكريم:

﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

كما توعد الله المتعاملين بالربا بحرب منه ورسوله، وحرب الله لها صور شتى ومظاهر متنوعة قد تكون فى تسليط أعدائنا علينا أو نذوق بأس بعضنا بالحرب الأهلية أو بالأمراض المختلفة أو بالآفات ونقص فى المحاصيل وجدب فى الخيرات وكلها ابتلاءات لا تفيد معها أموال الدنيا مهما عظمت، هذا علاوة على النار التى أعدها الله للكافرين بتعاليمه والعاصين لأوامره.

قال عز وجل:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٨- ٢٨١].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٠- ١٣٢].

وإليك أخى المسلم تلك المذكرة التفصيلية من الأحاديث النبوية تترجم وتفصل وتوضح ما أجمل فى الدستور الأساسى وهو القرآن الكريم.

وهذه الباقة من أحاديث الصادق المعصوم تغنى عن كل قول وتخرس كل لسان لأنها أحكام فاصلة لا ينطق بها عن الهوى ولكن من وحى حكيم خبير وهو الله العزيز القدير ولا يلومنَّ العاصى بعد ذلك إلا نفسه فالحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات فمن استبرأ منها فقد استبرأ لدينه وعرضه.

- عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال:

«اجتنبوا السبع الموبقات. قالوا: يا رسول الله وما هنَّ؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولى يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات».

- وعن سمرة بن جندب رضى الله عنه قال: قال النبى ﷺ:

«رأيت الليلة رجلين أتيانى فأخرجانى إلى أرض مقدسة فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم فيه رجل قائم، وعلى شط النهر رجل بين يديه حجارة فأقبل الرجل الذى فى النهر، فإذا أراد أن يخرج رمى الرجل بحجر فى فيه فرده حيث كان، فجعل كلما جاء ليخرج رمى فى فيه بحجر فيرجع كما كان، فقلت: ما هذا الذى رأيته فى النهر؟ قال: آكل الربا».

- وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال: «لعن رسول الله ﷺ آكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهديه».

- وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«أربع حق على الله أن لا يدخلهم الجنة ولا يذيقهم نعيمها: مدمن الخمر وآكل الربا وآكل مال اليتيم بغير حق والعاق لوالديه».

- روى عن ابن عباس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«من أعان ظالمًا بباطل ليدحض به حقًا فقد برئ من ذمة الله وذمة رسوله ﷺ، ومن أكل درهمًا من ربا فهو مثل ثلاثة وثلاثين زنية، ومن نبت لحمه من سُحت فالنار أولى به».

- وعن البراء بن عازب رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«الربا اثنان وسبعون بابًا أدناها مثل إتيان الرجل أمه، وإن أربى الربا استطالة الرجل فى عرض أخيه».

- وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: «نهى رسول الله ﷺ أن تُشترى الثمرة حتى تُطعم - أى يتم نضجها - وقال: إذا ظهر الزنا والربا فى قرية فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله».

- وروى الأصبهانى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه:

«أن رسول الله ﷺ لما عُرج به إلى السماء نظر فى سماء الدنيا، فإذا رجال بطونهم كأمثال البيوت العظام قد مالت بطونهم وهم مُنضَّدون على سابلة آل فرعون يوقفون

على النار كل غداة وعشى يقولون: ربنا لا تُقم الساعة أبدًا قال: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء أكلة الربا من أمتك لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس».

– وعن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال:

«بين يدى الساعة يظهر الربا والزنا والخمر».

– روى عن عوف بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إياك والذنوب التى لا تُغفر: الغلول، فمن غلَّ شيئًا أُتى به يوم القيامة، وآكل الربا، فمن أكل الربا بُعث يوم القيامة مجنونًا يتخبط ثم قرأ: **«الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس».**

– عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال:

«ما أحدٌ أكثر من الربا إلا كان عاقبة أمره إلى قلة».

– وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«ليأتين على الناس زمان لا يبقى منهم أحد إلا أكل الربا، فمن لم يأكله أصابه من غباره».

– وروى عن أبى أمامة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال:

«يبيت قوم من هذه الأمة على طُعم وشُرب ولهو ولعب، فيصبحون قد مسخوا قردة وخنازير، وليصيبنهم خسف وقذف حتى يصبح الناس، فيقولون خُسف الليلة ببنى فلان، وخُسف الليلة بدار فلان، ولترسلن عليهم حجارة من السماء كما أرسلت على قوم لوط على قبائل فيها وعلى دور، ولترسلن عليهم الريح العقيم التى أهلكت عادًا على قبائل فيها، وعلى دور بشربهم الخمر ولبسهم الحرير واتخاذهم القينات وأكلهم الربا وقطيعة الرحم».

صدقت يا سيدى يا رسول الله فقد بلغت الرسالة وأديت الأمانة ونصحت الأمة وكشفت الغمة، فمن اهتدى لنفسه، ونال خير الدنيا والآخرة، ومن ضل فقد ظلم نفسه ظلمًا مبينا وأحاطها بالشرور والسيئات وقادها إلى دركات من نيران الدنيا والآخرة وهذا لا يليق بعاقل عرف ربه وسمع هدى رسوله واستنار بنور الإسلام.

فالربا كسب سهل يعقبه خسران مبين ليس مؤجلاً إلى ما بعد الموت ولكن فى الحياة الدنيا حيث يُقوِّض أركان المجتمعات بفاعلية لا يُدانيه فيها أى نظام آخر، فالإسلام حرَّم

لبشاعة آثاره الهدامة، ووضع أنظمة أخرى لتداول الأموال فى المجتمع الإسلامى تشيع فيه التقدم والرخاء وتحقق لأفراده ما ينشدونه من رفاهية وأمن يتباهون بهما أمام شعوب الأرض قاطبة.

وننتقل إلى آفة أخرى من مهلكات الوظيفة الاجتماعية للمال ألا وهى الاحتكار.

٥ – تحريم الاحتكار:

إن المحتكر هو الذى يوصد على احتياجات الناس من مطعم وملبس أبواب مخازنه ليبيعها فى السوق السوداء بالسعر الفادح الشره فهو ملعون لاتفتأ اللعنة تطارد أمواله حتى تجعلها هباء ولو بعد حين، كما قال الرسول ﷺ:

«الجالب مرزوق والمحتكر ملعون».

(رواه ابن ماجة عن عمر رضى الله عنه).

فالجالب عكس المحتكر لأنه يجلب ما يحتاجه الناس من مواطنها البعيدة أو القريبة ثم يضعها فى متناول الناس بأسعار هادئة لا ترهق كاهلهم ولا تجعلهم يلهثون وراء ارتفاع الأسعار، فالسعر الرخيص تهوى إليه أفئدة الملايين من المستهلكين لأنه يتناسب مع دخولهم والإسلام يريد تيسير العيش على الناس وتوفير ضرورات أرزاقهم، ولذلك فقد ذمَّ الرسول ﷺ العبد المحتكر بقوله ﷺ:

«بئس العبد المحتكر، إن أرخص الله الأسعار حزن، وإن أغلاها فرح».

(رواه الطبرانى عن معاذ رضى الله عنه).

فمجرد الحزن حين ترخص الأسعار، ومجرد الفرح حين تربوا وتزداد يدل على نفس خبيثة طامعة تفرح لحزن الآخرين، وتحزن لفرحهم، وهذا يتناقض مع أساسيات الدين التى تجعل المسلمين فى توادهم وتراحمهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، والتى تجعل المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضا، وبالتالى فنفس المحتكر عشقت المال عشقًا جعلها تتخذه إلهًا يحكم تصرفاتها ويرسم منهجها فى الحياة، لأن من رضى بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا لابد أن يرهف السمع ويخضع القلب لشرع الله، ويكون هواه تبعًا لما جاء به الحبيب المصطفى، ذلك الرسول العظيم الذى حرص أشد الحرص على أن تظ

الرزق للناس بعيدة كل البعد عن كل مناورة أو مؤامرة، وكل تاجر يتسبب فى احتكار هذه الأرزاق أو فى رفع أسعارها لا يجد له فى رحاب الله ولا فى رحاب رسوله مكانًا لأنه برئ من الله وبرئ الله منه، والعياذ بالله، فليس الطعام فقط هو الذى يتوعد الرسول محتكره بالعذاب، وليس الاحتكار فقط هو الذى يجلب لصاحبه الدمار واللعنة، بل إن مجرد المساومة أو المزايدة التى تُفضى إلى إغلاء سعر شىء - أى شىء - مما يحتاجه الناس فى معاشهم، كفيل بأن ينزل صاحبه مكانًا سحيقًا من غضب الله وعذابه.

اسمع معى إلى تلك الأحاديث النبوية الشريفة التى تتفجر حكمة مثلما تتفجر ثورة ونقمة على الذين يتوسلون إلى الثراء والمال بإنزال الضر بالآخرين، فتحذر وتتوعد من الذين تملكت شهوة المال نفوسهم فاحتكروا مصادر الرزق ومفاتيح الحياة للمجتمع الإسلامى:

- عن ابن عمر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«من احتكر طعامًا أربعين ليلة فقد برئ من الله وبرىء الله منه، وأيما أهل عرصة - بقعة واسعة - أصبح فيهم امرؤ جائعًا فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى».

- عن أبى أمامة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«أهل المدائن هم الحبساء فى سبيل الله فلا تحتكروا عليهم الأقوات ولا تغلو عليهم الأسعار، فإن من احتكر عليهم طعامًا أربعين يومًا ثم تصدق به لم تكن كفارة له».

- وعن أبى هريرة ومعقل بن يسار رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال:

«يحشر الحاكرون وقتلة الأنفس فى درجة، ومن دخل فى شىء من سعر المسلمين يغليه عليهم كان حقًا على الله أن يعذبه فى معظم النار يوم القيامة».

- وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال:

«احتكار الطعام بمكة إلحاد».

- وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«من احتكر حُكرة يريد أن يغالى بها على المسلمين فهو خاطئ وقد برئت منه ذمة الله».

- وعن الهيثم بن رافع عن أبى يحيى المكى عن فروخ مولى عثمان بن عفان رضى الله

عنه أن طعامًا ألقى على باب المسجد فخرج عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو أمير المؤمنين يومئذ. فقال: ما هذا الطعام فقالوا: طعام جُلب إلينا أو علينا. فقال: بارك الله فيه وفيمن جلبه إلينا أو علينا، فقال له بعض الذين معه: يا أمير المؤمنين قد احتكر. قال: ومن احتكره؟ قالوا: احتكره فروخ وفلان مولى عمر بن الخطاب. فأرسل إليهما فأتياه فقال: ما حملكما على احتكار طعام المسلمين؟ قالوا: يا أمير المؤمنين نشترى بأموالنا ونبيع. فقال عمر رضى الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالجذام والإفلاس». قال عند ذلك فروخ: يا أمير المؤمنين فإنى أعاهد الله وأعاهدك أن لا أعود فى احتكار طعام أبدًا، فتحول إلى مصر، وأما مولى عمر فقال: نشترى بأموالنا ونبيع. فزعم أبو يحيى أنه رأى مولى عمر مجذومًا مشدوخًا.

*** لماذا حرَّم الإسلام الاحتكار؟**

لما كان الاحتكار هو تخزين كميات كبيرة من الناتج فهذا يؤدى إلى نقص المعروض منه فى السوق بل وإلى اختفائه أحيانًا. مما يؤدى إلى اضطرار المستهلكين إلى دفع أسعار عالية للحصول على احتياجاتهم الأساسية الأمر الذى يؤدى إلى سلسلة من ارتفاع الأسعار وهو ما يعرف بالتضخم، ولا يخفى على أحد أضرار التضخم نلخصها بإيجاز شديد فى تلك النقاط الرئيسية:

- إضعاف ثقة الأفراد فى العملة الوطنية مما يؤدى إلى ظاهرة الهرب من النقود نظرًا لانخفاض قيمتها الحقيقية فى مواجهة ارتفاع الأسعار.
- سوء تخصيص الموارد الاقتصادية بتوجيه رءوس الأموال إلى مجالات النشاط الاقتصادى التى تحقق أقصى ربح ممكن بصرف النظر عن مساهمتها فى إشباع الحاجات الأساسية للأفراد.
- إضعاف المقدرة التصديرية: لأن ارتفاع مستوى الأسعار يؤدى إلى ارتفاع تكاليف الإنتاج مما يؤدى إلى عدم قدرة السلع على منافسة أسعار السلع الأخرى فى السوق العالمى.
- خلق مناخ ملائم وتربة خصبة للمضاربات مما يضاعف مشكلة سوء تخصيص الموارد.

الاقتصادية حيث تتجه إلى المجالات التى تحقق ربحًا سريعًا غير عابئة بالاحتياجات الضرورية لأفراد الشعب.

- تعميق الاختلال فى التوازن الاجتماعى نتيجة تخفيض الدخل الحقيقى لأصحاب الدخول الثابتة وزيادة عوائد عوامل الإنتاج الأخرى مما يؤدى إلى زيادة حدة التفاوت فى توزيع الثروة والدخل القومى وهذا يؤثر بصورة سلبية على درجة الاستقرار السياسى والاجتماعى لبلد معين.

- تفشى ظاهرة حب الثراء السريع لمواجهة ارتفاع الأسعار وما يصحب تلك الظاهرة من انعدام الترابط والتراحم بين فئات الشعب المختلفة وبالتالى تهدد التكافل الاجتماعى بالخطر لما تحويه النفوس من قلق ومرارة.

لكل هذه الآثار السيئة فقد حرَّم الإسلام الاحتكار لأنه داء يصيب المجتمعات فى معاشها وأخلاقها وتوازنها، وما كان لرسالة وُصفت بأنها آخر الرسالات التى تتفق مع الرشد الإنسانى حتى ذروته تترك داء كهذا يتعلق بحياة الإنسان على الأرض دون علاجه من جميع نواحيه قلبًا وقالبًا نُصحًا وإرشادًا مع رقابة ومتابعة استثارة العاطفة مع رفع عصا السلطان وهراوة القانون لتردع وتعاقب، وقد جعل الإسلام توفير السلع فى الأسواق يعادل الجهاد فى سبيل الله، فما الجهاد إلا للحفاظ على الأرض وخيراتها ومساعدة الناس على انتهاج الصراط المستقيم، ولذلك فإن الرسول الكريم ﷺ يقول: **«أبشروا فإن الجالب إلى سوقنا كالمجاهد فى سبيل الله وإن المحتكر فى سوقنا كالملحد فى سبيل الله»**.

*** عقوبة المحتكر فى الإسلام:**

نظرًا لخطورة الاحتكار القائم على استغلال حاجة الناس بهدف تحقيق أرباح تؤدى إلى ارتفاع الأسعار فإن الإسلام لم يترك هذا الأمر إلى النفس البشرية ترتدع أو لا ترتدع حسب درجة إيمانها لأن هذا الأمر يتعدى ضرر الشخص إلى ضرر المجتمع وفساد الأوضاع فيه، وعقوبة الفساد فى المجتمعات بصفة عامة الناتجة عن الانحراف عن منهج الله ورسوله حددها الشرع فى قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ

عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣].

لذلك ومن هذا المنطلق فقد أجمع فقهاء المسلمين على حرب الاحتكار ومقاومته وخاصة فى الوقت الذى يحتاج الناس فيه إلى المواد المحتكرة، وتتمثل هذه الحرب للاحتكار فى المواقف الإيجابية التالية:

- أن يؤمر المحتكر بالبيع بسعر المثل فإذا لم يبع باع عليه القاضى.
- استحقاق المحتكر لعقوبة التعزير وهى عقوبة كان يوقعها المحتسب ويقول عنها ابن القيم: «يتغير التعزير بحسب اقتضاء المصلحة له زمانًا أو مكانًا أو حالاً ويختلف تقدير العقوبة فيه حسب خطر الجريمة وتأصلها فى نفس المجرم».

لذلك فإن عقوبة التعزير قد تصل إلى الحبس أو الضرب أو العقوبة المالية وذلك على جرائم الاحتكار أو مخالفة التسعير... وهكذا تتبين عظمة الإسلام فى معالجته للاحتكار كآفة من آفات شهوة المال، بحيث تشمل هذه المعالجة الروح والجسد، الوعظ والعقاب، حقًا إنه الإسلام.

٦ - تحريم الغش :

إن الغش صورة من صور تحصيل الثروة والمال عن طريق حرام، فاحيانًا تطغى شهوة المال على المبادئ والقيم فيلجأ الإنسان إلى الغش لترويج بضاعته. والغش من أكثر الخطايا احتمالا للتأويل والتماس العذر والتبرير، فما أيسر أن يخدع الإنسان نفسه بأن هذا الذى يقترفه ليس حرامًا لأنه مثلا لم يسرق، ولم يكره ضحيته على ما أراد، ولذلك فإن النبى ﷺ يرسلها مدوية توقظ الضمير النائم فيقول صلوات ربى وسلامه عليه:

«بئس العبد عبد يستحل المحارم بالشبهات».

فشبهة الغش كشبهة السرقة البواح، وكما يكره المرء أن يُخدع فى أى معاملة يعاملها أو سلعة يشتريها ويذهب يتحرى أمره حتى يضمن سلامة ما أخذ، فكذلك يجب عليه أن يتحرى الأمر بالنسبة للآخرين حتى يكون على يقين بأنه لم يغشهم ولم يخدعهم.

يقول عليه الصلاة والسلام:

«من غشنا فليس منا، والمكر والخداع فى النار» (رواه الطبرانى عن ابن مسعود)

ن هذا الربط الحكيم بين الغش والخداع والمكر يقطع الطريق على أولئك الذين يستعملون ذكاءهم الشرير فى غش الناس أولا، ثم فى إقناع أنفسهم بأنهم لم يقترفوا جنحة ولا إثمًا. فالذين يجمعون المال وينمون ثرواتهم بالغش أيًا كان سَمْتُه ولونه، لا مكان لهم فى صفوف الأمة الراشدة. فالراشدون المؤمنون يتحلون أول ما يتحلون بالأمانة والتناصح. قال النبى ﷺ.

«المؤمنون بعضهم لبعض نصحة وادُّون وإن بعدت منازلهم وأبدانهم، والفجرة بعضهم لبعض غششة. متخاونون وإن اقتربت منازلهم وأبدانهم».

(رواه أبو الشيخ بن حبان عن أنس بن مالك).

أجل.. إن التناصح أوضح آيات الإيمان وهو فى مواطن الإغراء أكبر قداسة وأكثر لزومًا، فالكشف عن حقيقة الشيء وبيان عيوبه وسوآته، ليس واجبًا فرديًا يُناط بصاحب المنفعة فيه وحسب، بل هو واجب اجتماعى وجماعى ينادى إليه كل الذين آمنوا بربهم وسمعوا كلام رسولهم واستجابوا لنداء الحق والواجب.

وهذه روضة من الأحاديث النبوية الشريفة يفوح أريجها العطر على طريق النور ترشد الضالين وتأخذ بيد الحيارى والتائهين:

- عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ مرَّ على صُبرة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللا فقال: **ما هذا يا صاحب الطعام؟** قال: أصابته السماء يا رسول الله، قال: **أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس، من غشنا فليس منا».**

- وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ إلى السوق فرأى طعامًا مُصَبَّرًا، فأدخل يده فأخرج طعامًا رطبًا قد أصابته السماء فقال لصاحبها: «**ما حملك على هذا؟** قال: والذى بعثك بالحق إنه لطعام واحد. قال: «**أفلا عزلت الرطب على حدته واليابس على حدته فتبايعون ما تعرفون. من غشنا فليس منا**».

- وعن قيس بن أبى غرزة رضى الله عنه قال: «**مرَّ النبى ﷺ برجل يبيع طعامًا فقال: يا صاحب الطعام أسفل هذا مثل أعلاه؟ فقال: نعم يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ:** من غش المسلمين فليس منهم».

- وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ: «**أن رجلاً كان يبيع الخمر فى سفينة له ومعه قرد فى السفينة وكان يشوب الخمر بالماء فأخذ القرد الكيس فصعد الذروة وفتح الكيس فجعل يأخذ دينارًا فيلقيه فى السفينة ودينارًا فى البحر حتى جعله نصفين**».

- وعن عقبة بن عامر رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال:

«**المسلم أخو المسلم ولا يحل لمسلم إذا باع من أخيه بيعًا فيه عيب أن لا يبينه**».

- وعن تميم الدارى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«**إن الدين النصيحة. قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم**».

- وعن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«**من لا يهتم بأمر المسلمين فليس منهم ومن لم يصبح ويُمسى ناصحًا لله ولرسوله ولكتابه ولإمامه ولعامة المسلمين فليس منهم**».

- وعن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**».

وهكذا حرص الرسول الرحيم على تحذيرنا الدائب من مزالق سبيل الغش فهو يريد أن يحررنا من إغراء هوى النفس فى البيع والشراء، ويحذرنا من كل شائبة تغرى بربح حرام، فاكتساب المال عن طريق الغش يمثل سعيًا حثيثًا إلى الخراب والوبال، وإن بدا لصاحبه أنه سبيل للاستكثار، فاللهم احفظنا بما حفظت به أولياءك الصالحين وعبادك المتقين فإنك نعم المولى ونعم النصير.

٧ - تحريم التلاعب فى الكيل والميزان:

كما يحرِّم الإسلام الغش حين يكون تمويهًا فى نوع السلعة فإنه يحرمه بقوة أيضًا حين يكون تمويهًا وتطفيفًا فى وزنها وكيلها.

وخطيئة التطفيف كامنة فى أعماق نفوس البشر عبر الأجيال لأنها نوع من الكسب السهل السريع عن طريق السرقة فى المكيال والميزان وهذا ما حاربه الرسل خلال دعواتهم لتحرير النفوس البشرية من رق المادة إلى عبودية الواحد القهار، قال تعالى فى

...الكريم:

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (٨٦) ﴾ [هود: ٨٤ - ٨٦].

﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٣٥) ﴾ [الإسراء: ٣٥].

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) ﴾ [الرحمن: ٧ - ٩].

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [المطففين: ١ - ٦].

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ [الحديد: ٢٥]

لقد حرص الإسلام أشد الحرص على إقامة التوازن فى الحياة وأى اختلال فى هذا التوازن معناه اختلال فى أركان المجتمع لأنه اختلال قائم على الظلم وهضم حقوق البشر، والظلم ظلمات يوم القيامة لأنه من أبشع الذنوب، وجعل الله للمظلوم حقوقًا أعظمها أن دعوته ليست بينها وبين الله حجاب. ولا نجد أعظم من أقوال الصادق المعصوم فى بيان الأهوال التى تنتظر الذين ينقصون الكيل والميزان وبيان الهاوية التى تنتظر الأمم والشعوب إذا شاع فيها هذا الداء الخبيث.

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لأصحاب الكيل والوزن:

«إنكم قد وليتم أمرًا فيه هلكت الأمم السالفة قبلكم».

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال:

«يا معشر المهاجرين: خمس خصال إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أُخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يُمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوًا من غيرهم فأخذوا بعض ما فى أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله تعالى ويتخيروا فيما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم».

– وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال:

«القتل فى سبيل الله يكفر الذنوب كلها إلا الأمانة. ثم قال: يؤتى بالعبد يوم القيامة وإن قتل فى سبيل الله فيقال له: أد أمانتك. فيقول: أى رب كيف وقد ذهبت الدنيا؟ قال فيقال: انطلقوا به إلى الهاوية. فيُنطلق به إلى الهاوية وتُمثَّل له أمانته كهيئتها يوم دُفعت إليه فيراها فيعرفها فيهوى فى أثرها حتى يدركها فيحملها على منكبيه حتى إذا نظر ظنّ أنه خارج زلت عن منكبيه فهو من يهوى فى أثرها أبد الابدين. ثم قال: الصلاة أمانة، والوضوء أمانة، والوزن أمانة، والكيل أمانة، وأشياء عدَّدها أمانة وأشد ذلك الودائع، فأتيت البراء بن عازب فقلت: ألا ترى إلى ما قال ابن مسعود. قال: كذا. قال: صدق. أما سمعت الله يقول: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا (٥٨) ﴾ [النساء: ٥٨] (رواه البيهقى مرفوعا).

هكذا أراد الإسلام الكسب: أن يكون حلالاً لا غش فيه ولا نقص فى المكيال والميزان لأن الإنحراف عن جادة الحق يجعله ينزلق فى دركات من الخطيئة حتى تحيط به خطيئته وتغرقه فى بحار الهاوية الكبرى حيث لا نجاة بعدها، ومن أعظم الخطايا التى تنتج عن شهوة حب المال حبًا جمًا هى خطيئة اليمين الكاذبة الغموس التى يستخدمها المرء آثمًا فى الحصول على ما ليس من حقه:

– عن ابن مسعود رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «من حلف على مال امرئ مسلم بغير حق لقى الله وهو عليه غضبان. قال عبد الله ثم قرأ علينا رسول الله ﷺ مصداقه من كتاب الله عز وجل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧) ﴾ [آل عمران: ٧٧].

- وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال:

«الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، واليمين الغموس».

- وعن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال:

«اليمين الفاجرة تُذهب المال أو تذهب بالمال».

- رُوى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«ليس مما عُصى الله به هو أعجل عقابًا من البغى وما من شىء أُطيع الله به أسرع ثوابًا من الصلة، واليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع».

- وعن الحارث بن البرصاء رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ فى الحج بين الجمرتين وهو يقول:

«من اقتطع مال أخيه بيمين فليتبوأ مقعده من النار، ليبلغ شاهدكم غائبكم مرتين أو ثلاثًا».

فتصريف السلعة باليمين الفاجرة الكاذبة عمل يقود إلى النار.

* المنهج الإسلامى فى الكسب الطيب:

لكى يبارك الله للبائع فى كسبه، وللمشترى فى حاجته رسم الرسول ﷺ النهج الذى يغنى كلا منهما عن التحايل والانحراف عن الصراط المستقيم.

قال ﷺ:

«البيعان بالخيار ما لم يتفرقا فإن صدق البيعان وبيّنا بورك لهما فى بيعهما وإن كذبا وكتما فعسى أن يربحا ربحًا ما ويمحقا بركة بيعهما».

فالبائع والمشترى فى خيار من أمرهما إلى أن يتفقا وعلى كل منهما أن يحرص على الا يبخس الآخر حقه، فإن احتال أحدهما ونجحت حيلته فى أن يأخذ ما ليس له بحق فسيربح فعلاً ربحه العاجل، ولكن أين المفر من العدالة الإلهية التى وضعت الموازين بالقسط. ويبشر الرسول من كان كسبه طيبًا فيقول:

«طوبى لمن طاب كسبه وصلحت سريرته وكرمت علانيته وعزل عن الناس شره».

ويبين مكانة التجار الشرفاء الذين التزموا الصدق مع الله فى اتباع منهجه وشريعته فيقول ﷺ:

«التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء».

(رواه الترمذى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه).

- وقال ﷺ:

«التاجر الصدوق تحت ظل العرش يوم القيامة» (رُوى عن أنس رضى الله عنه).

- وقال أيضًا صلوات ربى وسلامه عليه:

«إن أطيب الكسب كسب التجار الذين إذا حدثوا لم يكذبوا وإذا ائتمنوا لم يخونوا وإذا وعدوا لم يخلفوا وإذا اشتروا لم يذموا وإذا باعوا لم يمدحوا وإذا كان عليهم لم يمطلوا وإذا كان لهم لم يعسروا» (رواه البيهقى عن معاذ بن جبل).

والذى يطيب كسبه ويعزل عن الناس شره ليس هو من يتجنب الغش والاحتكار وتطفيف الميزان والكذب فحسب، بل هو مع ذلك وقبل ذلك من يتجنب الإتجار فيما حرّم الله من مطعم حرام ومشرب حرام وسلعة حرام، فالإتجار فى كل ما هو محظور ومحرم سبيل للكسب الخبيث والثراء الدنس ومن ثم نهى عنه الإسلام نهيًا قاطعًا وحذر منه، فالمؤمن الصادق طيب يسعى إلى الطيبات ويتجنب الخبائث ولا ينمى لحمه من سُحت ولا يضاعف ثروته بالحرام، لأنه مؤمن بالله ورسوله ونهى النفس عن الهوى وما جُبلت عليه من شهوات فنجى نفسه من نيران الدنيا والآخرة وأجبرها على كل ما يرضى الله ورسوله فسار بها على درب الإيمان فى موكب النور والفلاح.

٨ - تحريم السرقة والغلول:

قال تعالى فى كتابه الكريم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ (٢٩)﴾ [النساء: ٢٩].

والباطل هنا يشمل كل ما نهى عنه الإسلام من مكسب حرام، وكل ما تكلمنا عنه فيما سبق يتضمن نوعًا من السرقة لأقوات الناس واحتياجاتهم فى الحياة، ويأتى على رأس تلك الآفات من الكسب الخبيث: الغلول، وهو اختلاس الأموال العامة وسرقتها، والغلول ليس سرقة فحسب، وليس كسبًا حرامًا فحسب، ولكنه مع ذلك تخريب وبيل وخيانة مبينة لأنه عدوان على أموال عامة، لا يملكها فرد، إنما تملكها الجماعة والأمة،

وهى لكثرتها وكثرة الأيدى العاملة فيها وضعف الرقابة تغرى بحملقة الأعين وتوقظ شهوات النفوس إلى حب المال، فإذا تحول ذلك إلى فعل فسرعان ما تتسع دائرة العدوى به وتكثر الأيدى الناهبةوالمختلسة، فتقع الأموال العامة التى هى حق الأرملة والضعيف والعامل والكادح واليتيم والمريض والمسكين، والتى تقوم بها مصالح الأمة وضرورات حياتها، تقع هذه الأموال فريسة الاختلاس والغلول والضياع.

وللأموال العامة حرمة لو يعلمها الناس ما جرؤ أحد على العبث بها، وهى لا تمثل فى النقود وحسب، بل وفى كل ما تتكون منه الثروة العامة للأمة، قال أبو هريرة رضى الله عنه:

«قام فينا رسول الله ﷺ ذات يوم فذكر الغلول فعظَّم وعظم أمره حتى قال: لا ألفين أحدكم يجئ يوم القيامة على رقبته بعير له رُغاء. يقول رسول الله أغثنى. فأقول: لا أملك لك شيئًا قد بلغتك. ولا ألفين أحدكم يجئ يوم القيامة على رقبته فرس له حمحمة يقول: يا رسول الله أغثنى فأقول: لا أملك لك شيئًا قد أبلغتك. ولا ألفين أحدكم يجئ يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء يقول: يا رسول الله فأقول: لا أملك لك شيئًا قد أبلغتك، ولا ألفين أحدكم يجئ يوم القيامة على رقبته نفس لها صياح يقول: يا رسول الله أغثنى. فأقول: لا أملك لك شيئًا قد أبلغتك، ولا ألفين أحدكم يجئ يوم القيامة على رقبته رقاع تخفق. يقول: يا رسول الله أغثنى فأقول: لا أملك لك شيئًا قد أبلغتك، ولا ألفين أحدكم بجىء يوم القيامة على رقبته صامت يقول: يا رسول الله أغثنى. فأقول: لا أملك لك شيئًا قد أبلغتك».

ففى هذا الحديث الكريم تعداد لبعض الأصناف التى تتكون منها الثروة وقد جاء المال فى ختامها وهو الذى عبر عنه الرسول بالصامت: فالصامت هو المال ذهبًا أو فضة أو أوراقًا نقدية، وكل اختلاس أو انتهاب لما ليس للإنسان بحق سيحمل وزره الفادح فى دنياه وأخراه ولن يغنى عنه أحد من الله شيئًا لأن الرسول الحبيب قد نصح الأمة وكشف الغمة وجاهد فى الله حق جهاده فلا يلومنَّ أحد بعد ذلك إلا نفسه الأمارة بالسوء التى أسلس لها زمام الشهوات فقادته إلى النيران. وأحاديث الرسول ﷺ الزاجرة عن الاختلاس والغلول تبلغ ذروتها فى واقعة «رفاعة بن يزيد» الذى كان يعمل فى خدمة رسول الله بعد إسلامه. وفى إحدى الغزوات اختص نفسه بشملة من الغنائم -والغنائم أموال عامة- لا ينبغى لأحد أن يأخذ منها شيئًا إلا بعد حصرها وقسمها وفق القواعد المشروعة.

وذات يوم أصاب «رفاعة» سهم قاتل من كمين للعدو كان يتربص بالمسلمين. وسمع الرسول ﷺ أصحابه يغبطونه على استشهاده فقال والأسى يكسو وجهه: «إن الشملة التى أخذها من الغنائم لتشتعل عليه نارًا».

ولطالما كان الرسول الحبيب والمعلم الأمين يحذر أصحابه الذين يعملون ولاة أو قوامين على أمور الناس من الأموال العامة ويضرب لهم المثل برجل بعثه ساعيًا على قوم فغلَّ نمرة أى بُردة من صوف. يقول عليه السلام: «.. **فدرع مثلها من نار**» أى عوقب على فعلته هذه بعد موته بأن أُلبس درعًا من نار تتلظى بها روحه فى برزخها.

- وروى عن عوف بن مالك رضى الله عنه قال: **قال رسول الله ﷺ:**

«إياك والذنوب التى لا تُغفر: الغلول، فمن غل شيئًا أُتى به يوم القيامة».

أفبعد هذه الأحاديث تظل النفوس فى غيها وشهواتها؟ إن كان ذلك كذلك فلن تفيق تلك النفوس الشرهة إلا على سكرة الموت وما بعده من فتنة القبر، فإذا صرخت بأعلى صوتها: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا ۝١٠٠﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠] جاءتها أصوات الملائكة: ألم يأتكم نذير مبين من الله؟ بلى يا رب قد جاءنا منك نور وكتاب مبين يهدى إلى الصراط المستقيم فأعنا بفضلك وجودك وكرمك على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

٩ - تنظيم الدَّين:

إن شهود حب المال حبًا جمًا تتمثل بشكل جلىّ فى موضوع الدَّين. فصاحب المال يشح به أن يقرضه لأحد خوفًا على ماله من الضياع أو على أصح الأحوال ضياع فرصة استثماره فى المدة التى يقضيها عند المدين، والمدين يتلهف على المال وقت احتياجه ثم يتكاسل فى الوفاء توهمًا منه أن هذا جهد عليه وخوفًا من ظروف الفقر والحاجة التى مرت به وأعوذته إلى الاستدانة.

ولذلك وقف الإسلام موقفًا متوازنًا من موضوع الدين هذا: فشجع الغنى على سد حاجة المحتاجين وجعل ثوابًا عظيمًا لمن يقف ذلك الموقف من إخوانه المسلمين، فالإسلام دين الشهامة والمروءة والتكافل الاجتماعى والانصهار مع المجتمع فى بوتقة الإيمان التى أنعم الله بها علينا. وفى نفس الوقت وقف موقفًا صارمًا تجاه من يماطل فى أداء الدين أو يقترض وهو ينوى عدم السداد، فالمال قوام الحياة، وإذا تُرك لرياح

التلاعب والأكل بالباطل ضاعت معالم الحياة وضاع معها المبادئ والقيم وهى الأعمدة الأساسية التى تقيم بناء المجتمعات، كما أن الإسلام دين الوفاء بالعهود ودين العدل والمساواة والطهر وأداء الحقوق إلى أصحابها.

قال تعالى فى كتابه الكريم:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢) وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣) ﴾ [البقرة: ٢٨٢، ٢٨٣].

إنه تنظيم دقيق لعملية الدين، فيه ضمان للحقوق، وإشاعة للأمن فى العلاقات المالية والاجتماعية، وتعتبر آية الدين أطول آية فى القرآن ومعجزة العصور فى تسجيل الدين حتى ولو كان صغيراً وضرورة الوفاء ومراعاة الأمانة عند التسجيل وعند الأداء وعند الشهادة، فالوفاء أمر إلهى يقترن بالعقيدة الإسلامية.

قال تعالى فى كتابه الكريم:

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النحل: ٩١]

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (٣٤) ﴾ [الإسراء: ٣٤]

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) ﴾ [الحج: ٣٨]

وقد بلغ من أهمية الدين فى الإسلام أن الله جعل تقسيم الميراث بعد أداء الديون أولاً، فلا يحل اقتسام تركة قبل أداء ما على الميت من دين: قال تعالى:

﴿ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴾ [النساء: ١١]

﴿ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (١٢) ﴾ [النساء: ١٢]

والآن ننتقل إلى المذكرة التفصيلية للدستور العظيم (القرآن الكريم) ننتقل إلى الهدى النبوى الشريف نقتبس منه بعض ما جاء منه فى تنظيم العلاقة بين الدائن والمدين:

روى أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«اللهم إنى أعوذ بك من الكفر والدَّين. فقال رجل: يا رسول الله أتعدل الكفر بالدَّين؟ قال الرسول: نعم».

إن الرسول يحذر هنا من الدَّين أشد التحذير حتى لا يركن إليه أولئك الذين يؤثرون المأخذ السهل ويتنكبون طريق المعاناة والصبر والسعى الدءوب، وهذا المسلك حين يفشوا فى مُجتمع ما يضعضع روح الثقة فى الجماعة ويتسبب فى تحريف علاقات الناس بالمال عن طريق الخير والتعاون على البر والتقوى إلى طريق الشُح والضنّ والانطواء، ثم إن استمراء الدين لا سيما إذاكان ثمة عزم على المطل أوعجر عن السداد يعنى الرغبة فى أكل أموال الناس بالباطل، الأمر الذى يرفضه الإسلام بشدة وحذرنا منه الله فى قرآنه الكريم ورسوله الحبيب فى هديه الشريف.

إن الرسول عندما يحذرنا من الدَّين يريد أن يريح الناس من هم ثقيل يقض المضاجع ويحنى الجباه ويذل الأنفس، إنه عليه السلام يقول:

«لا تخيفوا أنفسكم بعد أمنها. قالوا: وماذاك يا رسول الله؟ قال: الدَّين»

– ويحثنا الإمام مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه:

«كان يؤتى بالرجل الميت عليه الدّين فيسأل الرسول: **هل ترك لدينه قضاء؟** فإن حُدِّث أن ترك وفاء لدينه صلى عليه وإلا قال: **صلوا على صاحبكم**. فلما فتح عليه الفتوح قال: **أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن تُوفى وعليه دَين فعليَّ قضاؤه ومن ترك مالاً فلورثته**».

إلى هذا المدى العظيم تبدو مسئولية الدين واضحة وفادحة، فالرسول الذى هو بالمؤمنين رءوف رحيم وهو على الموتى من المؤمنين أكثر حبًا وعطفًا وبهم أكبر رحمة ورأفة، يتحرج عن الصلاة على ميت مدين لم يترك وفاء لدينه، حتى إذا أفاء الله عليه من مغانم الفتوح كان أول ما يبادر به وإليه سداد الدين عن كل مسلم يموت وعليه دين، وهنا تبدو حرمة الحقوق عند رسول الله الكريم، إنها حرمة تشبه القداسة تتباهى بها شريعة الإسلام على جميع الشرائع والقوانين منذ خلق الله الأرض وما عليها، وليس معنى هذا الزجر السابق عن الدّين أنه محظور أو مُحرَّم شرعًا بل هو مباح فى حدود الضرورة المُلحة وفى حدود العزم الصادق على الوفاء، قال ﷺ:

«من أخذ أموال الناس يريد أداءها، أدى الله عنه ومن أخذ أموال الناس يريد إتلافها أتلفه الله».

ويقول صلوات ربى وسلامه عليه:

«ما من عبد كانت له نية فى أداء دينه إلا كان له من الله عون».

فالرسول إنما يزجر عن الدّين الذى يورط الناس به أنفسهم فى مواقف الحرج والبوار والمماطلة ويريق به المسلم ماء وجهه رغم أن الإسلام يريد له العزة والرفعة الناتجان عن اتصاله بالله واتباع شريعته ومنهاجه.

والحبيب المصطفى لا يريد لأحد أن يصير الدّين منهجًا لحياته أو مصدرًا من مصادر عيشه ورزقه، كما لا يريد أن تفسد بسبب الدّين علاقات الناس التى ينشد لها أقصى حدود الوئام والود والثقة، من أجل ذلك كله مقت المُطْل وقال: **«مطل الغنى ظُلم»**.

إن امتناع القادر عن الوفاء بما عليه من دين ظلم وإثم فالحق أحق أن يتبع وما الله يريد ظلمًا للعباد وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان، فإذا كان الدائن قد لبى نداء الحرج ومد يد العون للمدين فلابد على المدين أن يرد الجميل عند المقدرة ويفى حقوق أخيه المسلم.

وفى الجانب الآخر من تحقيق التوازن فى تلك القضية الحيوية نرى حنان الرسول ﷺ يفيض على المدين الذى اضطرته ظروفه القاهرة فاستدان ثم اضطرته مرة أخرى للعجز عن الوفاء، هنا يتقدم نبى الرحمة بتعاليمه الحانية موصيًا بإنظار المعسر -أى إعطائه مهلة أخرى- وفرصة جديدة يتأتى له فيها السداد فى غير مشقة أو عُسر، يقول صلوات ربى وسلامه عليه:

«كان فيمن قبلكم تاجر يداين الناس، فكان إذا رأى مُعسرًا قال لفتيانه: تجاوزوا عنه، لعل الله يتجاوز عنا. فتجاوز الله عنه».

ويقول الرسول الأمين الذى أرسله الله رحمة للعالمين:

«من سره أن يُنجيه الله من كرب يوم القيامة، فلينفس عن مُعسر أو يضع عنه».

فإرجاء موعد الوفاء بالدّين ومد أجله أمام المعُسر العوز عمل نبيل له من الله ثواب جميل، وأروع منه أن يضع الدائن المقتدر عن مدينه العاجز بعض الدين أو جميعه، هكذا يمسك الرسول العظيم بالميزان فى حكمة باهرة فهو ينهى عن التورط فى الديون واستمرائها، ولكن إذا فرضتها الظروف على قوم خف إليهم بالنجدة، وهو يوصى بهم دائنيهم ويعدهم على رحمتهم بالضعفاء، رحمة الله العزيز القدير، وحُسن الثواب وتفريج الكرب فى يوم كان على الناس عسيرًا.

ويمتد عطفه على المدين إلى تعليم كيف يقرع بعجزه باب الله واقفًا على أعتاب الفضل الإلهى يضرع إليه كى ينضو عنه أوزار الدين وأثقاله.

دخل ﷺ المسجد ذات يوم فى غير وقت صلاة فوجد صحابيًا من الأنصار يسمى «أبا أمامة» فسأله الرسول: **«يا أبا أمامة: مالى أراك جالسًا فى المسجد فى غير وقت الصلاة؟** قال أبو أمامة: هموم وديون لزمتنى يا رسول الله» ويبدو أن النبى ﷺ لم يكن معه يومئذ ما يقضى به دين صاحبه لذا دله على الفيض الرحيب قائلا له: **«أفلا أعلمك كلمات إذا قلتها أذهب الله همك وقضى عنك دينك؟ قل إذا أصبحت وإذا أمسيت: اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل وأعوذ بك من البخل والجبن وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال».**

يقول أبا إمامة: فلزمت هذا الدعاء حتى أذهب الله به همى وقضى دينى.

وهكذا يعالج الإسلام مشكلة الدين علاجًا شاملاً يشمل فى جذوره تحرير المسلم من

شهوة حب المال فيقف الدائن بجانب أخيه المسلم وقت شدته لا يكبله حب المال بل تدفعه مرضاة الله ورسوله فيحقق التكافل الاجتماعى فى أجمل صوره، ثم يؤدى المدين دوره فيقوم بالسداد عندما يفتح الله عليه الرزق إيمانًا منه بأن الوفاء شيم الكرام ومنبع الإيمان ودستور الإسلام، أما فى حالة العجز فليس أمام الطرفين سوى اللجوء إلى الله، الدائن بتسامحه وطلب ما هو أعظم من المال وكل كنوز الأرض، وطلب مرضاة الله وتفريج كرب يوم القيامة، أما المدين فيتضرع إلى الله ليفتح له أبواب فضله ويرزقه رزقًا طيبًا مباركًا فيه يفك أسره ويحرره من عبودية الدّين.

فاللهم إنا نحمدك ونشكر فضلك على ما أنعمت وأعطيت ويسرت لنا سبل الحياة وأنرت لنا سبل الرشد والهداية فى الحياة فأعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك فأنت مولانا تخرجنا من الظلمات إلى النور فنعم المولى ونعم النصير.

١٠ – فرض الزكاة والصدقات كأساس لتداول الأموال فى المجتمع الإسلامى:

إن الزكاة هى أروع تنظيم يعالج الشهوات عمومًا ليس شهوة المال فحسب بل شهوة الطعام وحب الاكتناز والنساء والبنين وجميع الشهوات التى تتفرع عن تلك الشهوات الأساسية، فالزكاة تطهير لنفس المؤمن من أن يجعل كل همه متجهًا لرغبات الحياة الدنيا، وإنما تعلمه أن هناك من هو أولى منه بهذا الإنفاق طالما أشبع احتياجاته الأساسية لأنه سمع قول الرسول الكريم:

«ليس منا من بات شبعان وجاره جائع».

وقوله ﷺ: **«أيما أهل محلة باتوا وفيهم جائع فقد برئت منهم ذمة الله».**

إن دافع الزكاة المؤمن بالله يدفعها لأخ له فى الإسلام يشعر أنه محتاج ويريد أن يسد حاجته. فإذا كان هذا المؤمن يدفع المال وهو أغلى ما فى الحياة بالنسبة للإنسان وشقيق الروح ومن أعتى شهوات الحياة، فلابد أنه سيتعلم كيف يتغلب على شهواته ويخضعها لميزان العقل، بل قد يعرج فى هذا المجال عروجًا روحيًا ساميًا يصل به إلى درجة: **﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾** [الحشر: ٩] فالزكاة فرض إسلامى تناهى فى العدل والرحمة، فهى لا تكلف المسلم من أمره عسرًا، بل تُفجر فيه طاقات العطاء وتعصمه من البخل والبغضاء، وعندما دعا المولى جل شأنه إلى الزكاة فإنه بين لنا أن هذا يزكى أنفسنا ويطهر أرواحنا، بل وينمى أموالنا:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣]

ويمدح الله المؤدين الزكاة بأنهم موفون بعهدهم مع الله وبالتالى يستحقون رحمة الله الواسعة: **﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾** [الأعراف: ١٥٦].

ويتبع الحبيب المصطفى النهج القرآنى الكريم فى بيان أهمية الزكاة وأثرها فى تزكية النفوس وطهارة الأرواح فيقول صلوات ربى وسلامه عليه:

«حصنوا أموالكم بالزكاة».

ويقول:

«تخرج الزكاة من مالك فإنها طُهرة تطهرك».

«إذا أديت زكاة مالك، أذهبت عنك شره».

إنها لا تطهر المؤمن من إثم النكوص عن إحدى فرائض الدين فحسب، بل هى تطهر روحه من كل شوائب الافتتان بالمال، والتكالب عليه والشُح به كما تطهره من أحقاد المحرومين وحسد الحاسدين.

ثم يربط الرسول الكريم فريضة الزكاة بالضمير أكثر مما يربطها بالقانون، فهو يريد للمؤمن تحريره من شهوة عبودية المال، ويستخدمه فى كل ما يرضى الله وينفع عباده، من أجل هذا يريد الرسول ﷺ أن نُعطى زكاة أموالنا مهما بلغ حجمها وقدرها بمشاعر الرضا والحبور ولا التأفف والضجر، فيقول عليه السلام فى معرض حديثه عن النموذج الصالح للمسلم الصالح: «.. وأعطى الزكاة طيبة بها نفسه».

وهو ﷺ لا يفرض الزكاة على المال وحده، بل وعلى أنواع أخرى من مصادر الثروة كالزروع والثمار والأنعام و... ولأنه يريد للزكاة أن تكون عطاء روح وضمير لا إكراه سلطة وقانون، فقد دعا المؤمنين ألا يقف العطاء عند مقادير الزكاة وحدها، بل عليهم أن يجاوزوها إلى المزيد من العطاء متمثلاً فى الصدقات، التى ترك لها الباب مفتوحًا حتى تصل إلى ثلث المال، سئل عليه السلام يومًا عن أشياء لم تفرض فيها الزكاة فكان جوابه:

«. . ما أنزل عليّ فيها إلا هذه الآية الفذة الجامعة ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

فكل عون يبذله المسلم من مال خير يتألق فى رصيده عند الله.

– عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: أتى رجل من تميم إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إنى ذو مال كثير فأخبرنى كيف أصنع؟ وكيف أنفق؟ فقال الرسول: **تخرج الزكاة من مالك، فإنها طهرة تطهرك وتصل أقرباءك وتعرف حق المسكين والجار والسائل**».

ففى المال حقوق كثيرة تقتضيها عدالة توزيع الدخول فى الإسلام، والتكافل الاجتماعى بين المسلمين والمشاركة بينهم فى السراء والضراء، وإذا كانت الزكاة قد فرضت على المسلم فلكى تضمن الحق الأساسى للفقراء والمحتاجين ثم لتكون تدريبًا للأنفس المجبولة على الشُح والأخرى المهيأة للبر والخير كى تجاهد فيها حب المال حبًا جمًا وتنمى فيها حب العطاء والتفاعل مع أفراد المجتمع الإسلامى.

والزكاة فى الإسلام قربى يشكر العبد ربه على نعمائه، من أجل هذا يدعونا الرسول ﷺ أن نعطيها حين نعطيها بأعين قريرة وأفئدة فرحة محبورة، فقال صلوات ربى وسلامه عليه:

«. . وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه رافدة عليه كل عام، ولم يُعط الهرمة ولا الدرنة ولا المريضة، ولكن من وسط أموالكم، فإن الله لم يسألكم خيره ولم يأمركم بشره».

والزكاة فريضة يتقاضاها أولوا الأمر إذا عجز الضمير الرشيد عن هداية المانعين لها فإن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، يقول نبينا المصطفى ﷺ:

«من أعطى زكاة ماله مؤتجرًا –أى راغبًا فى ثوابها من الله– فله أجرها، ومن منعها فإنا آخذوها وشطر ماله عَزْمَةٌ من عزمات ربنا».

فمانع الزكاة، الأنانى بماله، الذى غلب عليه شهوة حب [illegible] فاغتال حقوق الله فى هذا المال لا يُترك فى غيه، بل تؤخذ منه الزكاة، ويؤخذ منه [illegible] ردعًا له وعقابًا، ولقد رأينا خليفة رسول الله ﷺ «أبا بكر الصديق» رضى الله عنه [illegible]ضاه، يهتف فى وجه الفتنة التى خاضها قوم قرروا الإضراب عن دفع الزكاة.

«والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال، والله لو منعونى

عناقًا أو عقالاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله لقاتلتهم على منعها».

والعناق هو الأنثى من ولد المعز، والعقال هو الحبل الذى تُربط به الدابة.

إن موقف الإسلام من الزكاة ليكشف عن الإنسانية الباهرة لذلك الدين القيم فهو يراها حق الفقراء فى أموال الأغنياء ولن يجهد الفقراء إلا بشح الأغنياء ثم هو بعد ذلك لا يكلف الأغنياء عُسرًا ولا يفرض عليهم رهقًا.

– روى ابن عباس رضى الله عنهما قال: بعث رسول الله ﷺ معاذًا إلى اليمن فقال له:

«إنك تقدم على قوم أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله تعالى –فإذا عرفوا الله تعالى فأخبرهم أن الله فرض عليهم زكاة تُوخذ من أغنيائهم وتُرد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لذلك فخذ منهم وتوق كرائم أموالهم».

هذا هو نبى الرحمة يعرف ما جبلت عليه النفوس من الشُح وحب المال فاتبع سبيل الرحمة فى جمع الزكاة، ومن هنا كانت وصيته: **«توق كرائم أموالهم»**.

ولكن، ماذا إذا تحجرت الضمائر وقست القلوب ولم تستطع النفوس أن تقاوم شهوة حب المال ووقعت فى براثن الشُح وهوى الاكتناز؟

هنا لك يخبرهم الرسول ﷺ أن القصاص فى أثرهم، وأن عقاب الله مُدَّخر لهم. يقول صلوات ربى وسلامه عليه: **«ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدى منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صُفحت له صفائح من نار، فأحمى عليها فى نار جهنم فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره كلما بردت أُعيدت له»**.

وحين يتحول منع الزكاة من عصيان فردى إلى عصيان جماعى، أى حين تصبح السمة الغالبة على المجتمع الإسلامى تجاهل الزكاة ومنعها فآنئذ تغيض من هذا المجتمع منابع رزقه وتغشاه أزمات العيش والحياة، يقول صلوات ربى وسلامه عليه:

«ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنعوا القطر من السماء».

ومنع القطر هنا لا يعنى منع الأمطار وحدها، بل يعنى نضوب مصادر الثروة وأسباب الرزق، كما يعنى تفشى التدهور واندلاع الأزمات.

حقًا إن الزكاة سبيل لنماء الماء وحفظه عند الله وعن الناس، أما عند الله فلأن الزكاة

تعنى شكر الله على نعمائه والله سبحانه يقابل الشكر على النعم بإعطاء المزيد منها، وهكذا يتحرر المسلم من عبودية المال ويصير عزيزاً فى رحاب رب المال.

وأما عن الناس فلأن الزكاة حين تنفق فى سبل المعروف والبر، فتصل رحماً وتفرج كرباً وتغيث ملهوفاً، فإنها تترك فى نفوس الناس ذكرى طيبة ومودة دافئة لهذا الذى أدى زكاة ماله، وحين يُحاط الثراء بالمحبة بدل الحقد، وبالرضا والدعاء مكان التربص والمقت، فإنه بهذا يكون فى مأمن عظيم من طغيان شهوة المال على النفس حيث تجره إلى مهالك الهاوية.

فاللهم إنا نشهد بعظمة رسالتك وبأمانة رسولك فى تبليغ دعوتك ونشهد أن الرسالة المحمدية فيها شفاء من كل داء فيها علاج للأدواء والعلل التى تحتاج النفوس البشرية، فاجعلنا اللهم ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، واهدنا بفضلك إلى صراطك المستقيم ومنهجك القويم فأنت القائل وقولك الحق:

﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦].

وهكذا طفنا بين رياض القرآن والسنة لنرى كيف عالج الحكيم الخبير بمنهجه السديد وشرعه الحكيم تلك الشهوات التى تعتمل فى نفوس البشر وتدفعهم إلى ارتكاب المحظورات ما يتبعها من ويلات على البشرية جمعاء. ولذلك فإننا نقول بحق إن الحبيب المصطفى هو نبى الرحمة الذى أرسله الله ليرحمنا من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. فشرع الله هو السياج الحامى والدرع الواقى حتى لا تنطلق الشهوات من عنانها فتخرب وتدمر. ولكن الله الذى خلق الداء خلق معه الدواء، وجعل من تلك الشهوات نفسها حافزاً لإقامة الحياة على الأرض وتحمل ما فيها من معاناة وآلام. وهنا تظهر عظمة الإسلام وروعته فهو لا يكلف نفساً إلاّ وسعها ولا يحملها ما لا طاقة لها به، بل هو يتخذ من نزعات تلك النفس دافعاً لها على تعمير الأرض وعمارة الكون ولكنه يحيط تلك النزعات بسياج متين من شرع الله حتى لا تنحرف عن جادة الصواب وتحار فى مسالك الرغبات إلى مهاوى دركات الجحيم، فيأخذ الإسلام بيد المسلم برفق وأناه إلى مدارج الروح ليتذوق رشفات من رحيق القدس تغنيه عن أرجاس المادة وليعلم أن هناك ما هو أسمى وأرفع وأغنى من كنوز الدنيا وما فيها. ومتى تذوق المؤمن تلك المعانى

النبيلة وعرف ما أخذ هان عليه ما ترك واطمأن قلبه وتهذبت نفسه وانشرح صدره بنور الله.

فالإسلام دين الروح والجسد، دين الدنيا والآخرة،الدين الذى يوقظ الضمائر بالقرآن ثم يترك أصحاب الضمائر الميتة إلى السلطان يرهبهم بسياطه ويعزر المخالفين عن الصراط المستقيم.

ومهما قلنا ومهما كتبنا فستقف أقلامنا عاجزة عن تسجيل عظمة الإسلام فى علاجه لآفات الإنسان بصفته اللبنة الأولى فى بناء المجتمعات، وما أعظمها من مجتمعات تلك التى تُشَيَّدُ على ضمائر يقظة وقلوب استضاءت بنور الإيمان، فاللهم اجعلنا من عبادك المخلصين الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه فإنك قلت وقولك الحق:

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

* * *

من مجاهدات الصالحين

تلك بعض المقتطفات من مواقف الصالحين وأقوالهم على طريق مجاهدة الشهوات أردنا أن نذكرها هنا عظة وعبرة لأولى الألباب:

– اشتهى أبو الخير العسقلانى رضى الله عنه السمك سنين، ثم ظهر له ذلك من موضع حلال، فلما مد يده ليأكل دخلت شوكة من عظامه أصبعه، فذهبت فى ذلك يده، فقال: يا رب هذا لمن مدَّ يده بشهوة إلى حلال فكيف بمن مدَّ يده بشهوة إلى حرام.

– قال أبو سليمان رضى الله عنه: «ترك شهوة من شهوات النفس أنفع للقلب من صيام سنة وقيامها».

– قال الإمام أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه: «من أدب فى دنياه فيما يتعاطاه من متابعة هواه، فقد خُفف عنه فى عقباه، بل طهر بالتأديب جوهره ومعناه».

– وقال بعض الشعراء فى دعوة الناس إلى الاهتمام بالروح بوصفها الحقيقة الأساسية والجوهر الباقى، أما الشهوات التى ترضى الجسد فهى فانية بفناء الجسد وليس من العقل الاهتمام بالفانى على الباقى:

كمل حقيقتك التى لم تكمل
والجسم دعه فى الحضيض الأسفل
أتكمل الفانى وتترك باقيا
هملا وأنت بأمره لم تحفل
فالجسم للنفس النفيسة آلة
ما لم تحصله بها لم يحصل
يفنى وتبقى دائمًا فى غبطة
أو شقوة وندامة لا تنجلى
أعطيت جسمك خادمًا فخدمته
أتملك المفضول رق الأفضل

شرك كشيف أنت فى أحباله
مادام يمكنك الخلاص فعجل
من يستطع بلوغ أعلى منزل
ما باله يرضى بأدنى منزل

– وفى بعض الأخبار عن الله تعالى:

«إن أدنى ما أصنع بالعالِم إذا آثر شهوته على محبتى أن أحرمه لذيذ مناجاتى».

–وقال أبو الحسن الشاذلى: «لن يصل الولى إلى الله ومعه شهوة من شهواته أو تدبير من تدبيراته أو اختيار من اختياراته».

– وقال أحد الشعراء فى بيان أن الشهوة أمر يقع فيه الإنسان وقد يقيده فى الحياة ويهتك ستره:

رُبَّ مستور سبته شهوته
قد عرى ستره وانتهكا
صاحب الشهوة عبدٌ فإذا
ملك الشهوة أضحى ملكًا

– من الحكم المأثورة: «من وافق شهوته عَدِم صفوته».

«رب شهوة أورثت حزنًا طويلا»، «لو تغذى القلب بالمحبة لذهبت عنه بطنة الشهوات»، «حظ النفس فى المعصية ظاهر جلىّ وحظها فى الطاعات باطن خفى، ومداواةما يخفى صعب علاجه».

– ومن دعاء ابن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه:

إلهى: إن القضاء والقدر غلبنى، وإن الهوى بوثائق الشهوة أسرنى فكن أنت النصير لى حتى تنصرنى وتنصر بى واغننى بفضلك حتى أستغنى بك عن طلبى.

وقال: من استغرب أن ينقذه الله من شهوته وأن يخرجه من وجود غفلته فقد استعجز القدرة الإلهية وكان الله على كل شئ مقتدراً.

- قال الإمام أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه: «فراغ القلب من الأشغال نعمة عظيمة، فإذا كفر عبد هذه النعمة بأن فتح على نفسه باب الهوى وانجرّ فى قيادات الشهوات شوّش الله عليه نعمة قلبه وسلبه ما كان يجد من صفاء لُبه».

- قال سيدنا عمر رضى الله عنه: «إنك إذا اتقيت الله، اجتنبت ما حرم الله».

فإمحاص الوجهة لله سبحانه ورفض الشواغل البدنية والترقى إلى الورع والانسلاخ من رق عالم الشهادة كل هذا يحصل نتيجة عن التقوى حسبما وعد الله إذ يقول:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

- وقال لسان الدين بن الخطيب: «اعلم أن كل حكيم صانع إذا فكر فى أمره، ونظر فى العواقب، علم أنه لابد يومًا أن يخرب دكانه الذى هو محل صناعته، وتنحل أنقاضه، وتكل أدواته وتضعف قوة بدنه، وتذهب أيام شبابه. فمن بادر واجتهد قبل خراب الدكان، واستغنى عن السعى فإنه لا يحتاج بعد ذلك إلى دكان آخر، ولا إلى أدوات مجددة فليجتزئ بما أنشأه ويشتغل بالانتفاع والالتذاذ بما اكتسب، وهذه حالة النفس بعد خراب الجسد، فبادر واجتهد واحرص واستعجل وتزود قبل خراب دكانك وهدم بيتك فإن خير الزاد التقوى».

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى
وأبصرت بعد اليوم من قد تزودا
ندمت على ألا تكون كمثله
ولم ترصد مثل ما كان أرصدا

- من أضاع الفرصة تجرع الغصة، إن كان لك من زمانك شئ فالحال وما سواه محال، تارك أمره إلى غد لا يفلح أبداً، الإنسان ابن الساعة فليحفظها من الإضاعة، التسويف سم الأعمال وعدو الكمال، لم يحرم المبادر إلا فى النادر، ما درجت أفراخ عز إلا من مكر طاعة، ولا بسقت فروع ندم إلا من جرثومة إضاعة، العزم سوق والتاجر الجسور مرزوق، من وثق بعهد الزمان علقت يداه بحبل الحرمان، الربح فى ضمن الجسارة والمضيع أولى بالخسارة.

- وقال ابن عطاء الله رضى الله عنه:

«إذا علمت أن الشيطان لا يغفل عنك فلا تغفل أنت عمن ناصيتك بيده، إن عدواً يراك ولا تراه لشديد المؤنة إلا من عصمه الله»

أشكو عدواً كيده يرانى
ولا أراه حيثما يرانى
وعندما أنساه لا ينسانى
يا سيدى إن لم تغث سبانى

إن كان هو يراك من حيث لا تراه فإن الله يراه من حيث لا يرى الله فاستعن بالله عليه:

إنى بليت بأربع يرميننى
بالنبل عن قوس لها توتير
إبليس والدنيا ونفسى والهوى
يا رب أنت على الخلاص قدير

- ومن الأشعار التى قيلت فى ضرورة مجاهدة النفس وكتم رغباتها التى لا تنتهى وتوجيهها إلى ما فيه مصلحتها العليا وهو الانشغال بالأخلاق الحميدة ومعراجها الروحى فمتى تذوقت تلك المعانى السامية صارت فى خير وعافية:

وخالف النفس والشيطان واعصهما
وإن هما محّضاك النصح فاتهم
ولا تطع منهما خصماً ولا حكماً
فأنت تعلم كيد الخصم والحكم
فالنفس كالطفل إن تهمله شب على
حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم
فراعها وهى فى الأعمال سائمة
فإن هى استحلت المرعى فلا تسم

يا نفس دنياك تخفى كل مبلية

وإن بدا لك منها حسن مبتسم

صلاح أمرك للأخلاق مرجعة

فقوم النفس بالأخلاق تستقم

والنفس من خيرها فى خير وعافية

والنفس من شرها فى مرتع وخم

- وقد حدد سفيان الثورى رضى الله عنه معنى الزهد الحقيقى فقال: «إن الرجل ليكون عنده المال وهو زاهد فى الدنيا، ويكون فقيراً وهو راغب فيها».

- ومن كلمات رويم البغدادى رضى الله عنه:

«الفقر له حرمة وحرمته ستره وإخفاؤه والغيرة عليه والضن به فمن كشفه وأظهره فليس هو من أهله».

ويقول: «الصبر ترك الشكوى والرضا واستلذاذ البلوى والتوكل إسقاط الوسائط».

- وقال سرى السقطى رضى الله عنه:

«الدهر ثلاثة أيام يوم مضى بؤسه وشدته وغمه ولم يبق منه شئ، واليوم الذى أنت فيه صديق مودع، طويل الغيبة عنك سريع الرحلة عنك، وغداً فى يدك تأميله ولعلك من غير أهله».

- وروى عن ابن سراج عن الجنيد رضى الله عنه:

«رأيت ابليس فى منامى وكأنه عريان فقلت: أما تستحى من الناس؟ قال: بالله هؤلاء عندك من الناس؟ لو كانوا من الناس لما تلاعبت بهم كما يتلاعب الصبيان بالكرة، ولكن الناس غير هؤلاء. قلت له: ومن هم؟ قال: فى مسجد الشونيزى. قد أضنوا قلبى وأنحلوا جسمى، كلما هممت بهم أشاروا إلى الله فأكاد أحترق، قال جنيد: فانتبهت وذهبت إلى مسجد الشونيزى فإذا بثلاثة جلوس ورؤوسهم فى مرقباتهم فلما أحسوا بى أخرج أحدهم رأسه وقال: يا أبا القاسم: أنت كلما قيل لك شئ تقبل؟ وهم أبو حمزة وأبو الحسن النورى وأبو بكر الدقاق».

- كان العارف بالله إبراهيم بن أدهم شيخ الزاهدين: اشتهت نفسه أكل التين يوماً ولم يكن معه ما يشترى به فقال للبائع: اعطنى على أن أنقدك الثمن فيما بعد فقال له

البائع: أنا لا أبيع إلا نقداً. فانصرف إبراهيم بن أدهم قائلاً: والله لا آكل التين إلى يوم الدين، ولم يكن البائع يعرف أنه إبراهيم بن أدهم فلما أخبر به أرسل غلاماً له مملوكاً بوعاء ملأه تيناً، فلما أدركه الغلام قال له: إن سيدى يهدى إليك هذا التين. فقال له إبراهيم بن أدهم: والله لا أبيع الدين بالتين. فقال له الغلام: يا سيدى اقبل هذه الهدية فإن فيها عتقى من العبودية فقال له الشيخ: إن كان فيها عتقك فى الدنيا ففيها رقى يوم القيامة.

نعم:

صن النفس واحملها على ما يزينها

تعش سالماً والقول فيك جميل

ولا ترين الناس إلا تجملاً

نبا بك دهر أو جفاك خليل

يذل غنى النفس إن قل ماله

ويغنى غنى المال وهو ذليل

وإن ضاق رزق اليوم فاصبر إلى غد

عسى نكبات الدهر عنك تزول

فما أكثر الإخوان حين تعدهم

ولكنهم فى النائبات قليل

- وقال أبو بكر الشبلى: مجاهدة النفس بالنفس خير من مجاهدة النفوس بالنفس».

وكان يقول:

«ليس من استأنس بالذكر كمن استأنس بالمذكور».

ويقول:

«إذا وجدت قلبك مع الله فاحذر من نفسك وإذا وجدت قلبك مع نفسك فاحذر من الله»

فاللهم ارزقنا جهاد النفس ووفقنا إلى ما تحبه وترضاه، واجمعنا مع النبيين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقاً.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على خير الأنبياء وسيد المرسلين أما بعد، فهذه ساعة جهاد مع النفس أهديها لإخوة الإسلام على درب الإيمان كخاتمة لموضوع المعالجة الإسلامية للشهوات

الخاتمة

«ساعة جهاد مع النفس»

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

حقاً وصدقاً وعدلاً. إنها كلمات الله التامات المباركات تصلح لكل زمان ومكان، ولكل تجربة إنسانية يتجرع فيها المرء كئوس المرارة بمعصيته للخالق، ويحاول أن يسقط مسئوليته على الآخرين فى محاولة لتبرئة النفس من جراء ما اكتسبت يداها، ولكن هيهات هيهات لكل ما تقوله تلك النفس المخادعة المراوغة.

فالحكم الإسلامى واضح وصريح فى رفع المعاذير الواهية لكل نفس لاهية.

فاسمع معى إلى تلك الأحكام الإلهية فى كلمات محددة فاصلة.

﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) ﴾ [الطور: ٢١].

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة: ٤٨].

﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٥) ﴾ [آل عمران: ٢٥].

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠) ﴾ [آل عمران: ٣٠].

﴿ وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ [الأنعام: ٧٠].

﴿ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [يونس: ٣٠]

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٤٧) ﴾ [يونس: ٤٧].

﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴾ [الزمر: ٥٦].

﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ [الانفطار: ١٩]

﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ ﴾ [المؤمنون: ٦٢]

﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (٧) ﴾ [الطلاق: ٧]

﴿ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٧٩) ﴾ [النساء: ٧٩]

﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ﴾ [النساء: ٨٤]

﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) ﴾ [الإسراء: ١٤]

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١١٠]

﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١١١].

﴿ قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ﴾ [الأنعام: ١٠٤]

﴿ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ [يونس: ١٠٨]

﴿ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦]

﴿ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير﴾ [فاطر: ١٨]

﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة (١٤) ولو ألقى معاذيره﴾ [القيامة: ١٤، ١٥]

وبعد، فهذه بعض المتقطفات الموجزات من آيات الله البينات التى توضح بجلاء دور النفس فى اكتساب الحسنات والسيئات فى مراحل نضجها المختلفة: النفس الأمارة، والنفس اللوامة، ثم النفس المطمئنة، وهى أوج مراحل النفس البشرية حيث ترجع إلى ربها راضية مرضية.

فهل بعد تلك الحجج الواضحات والادلة الدامغات يمكن لأى نفس أن تراوغ وتلقى المعاذير الواهية على سقوطها فى الهاوية؟! وهل يمكن لأى إنسان عاقل ذو بصيرة إيمانية أن يسقط تبعة أخطائه على غيره؟ فإذا كان الأمر على تلك الحال من الحساب الدقيق للأفعال فأين المفر من المآل؟

بل أين المفر من تجنب سوء الأفعال؟ كيف يقى الإنسان نفسه من شر العاقبة ويتبع منهج الشريعة لينال خير الدنيا والآخرة؟ وكيف؟ وكيف؟. كثير من الأسئلة تراود الفكر فى معراج الرقى الروحى وبلا شك أن الإجابة عليها هينة يسيرة،لكن تطبيق المنهج نفسه هو بعينه من الأمور العسيرة وكيف لا؟ وهو وسط أمواج المادية الرهيبة يعصف به الموج من كل مكان يحاول أن يستنهض روحه من بين أشلاء جسده لتنقذه من أعاصير الموج وتخرج به إلى بر الأمان لاشك أن هذا هو الصراع الحقيقى الذى يقابل كل إنسان، فهو يواجه صراع الدنيا وإبليس والنفس والهوى حيث يرمينه بنبال متواترة لا يكاد ينجو من إحداها حتى تلاحقه الأخرى. ظلمات بعضها فوق بعض. هذا الصراع جعل أولى العزم من صالح البشرية يقول فى صراخ نفسى عميق ينتقل صوته عبر الأجيال: ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً- يا ليتنى كنت تراباً- يا حسرتى على ما فرطت فى جنب الله، ولولا كلمات نورانيات مطمئنات صدرت من الرحمن الرحيم لتقطعت قلوب العباد حسرات على ما صدر منهم من أخطاء خلال صراعهم فى الحياة من أجل التغلب على بشريتهم فى محاولات مستميتة لمجاهدة التدنى، ومجاهدات أكثر صعوبة لمتابعة الترقى. تلك الكلمات النورانيات هى:

﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم (٥٣)﴾ [الزمر: ٥٣].

والمتتبع لآيات المغفرة والرحمة والأحاديث القدسية والنبوية التى تدل على ذلك يجد أنها من الكثرة بمكان حتى ليكاد الجاهل يغتر بتلك الكثرة ويحسن الظن بالله، وهذا جهل عميق بأصول العقيدة الإسلامية، تملك الآيات والأحاديث القدسية والنبوية التى تختص بالمغفرة قد وضعت أصلاً علامات على طريق المجاهدين فى سبيل الحق، أما طريق الغافلين -والعياذ بالله- فقد وضعت لهم لافتات حمراء تنذر بالخطر وتحذر من سوء العاقبة.. ومن هنا جاء التحذير الشديد من الذين يفارقون الدنيا ولا زاد لهم يؤهلهم لدرجات النعيم ويقولون: نحن نحسن الظن بالله.

فهذا كذب شديد على أنفسهم وخداع أكبر لها، فلو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل كما قال الصادق المعصوم.

إلهى: كيف نحسن العمل وقد استغاث بك صناديد الرجال من طول الطريق وقلة الزاد؟

إلهى: إن لم يكن عون للإنسان منك فأول ما يجنى عليه اجتهاده.

إلهى: كيف نواجه كل تلك الصراعات بمفردنا إن لم تكن بجانبنا؟!

إلهى: سمعنا منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا، فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار ووفقنا إلى ما تحبه وترضاه وأدخلنا الجنة برحمتك مع الأبرار.

إلهى: آمنا بك وبرسولك الحبيب المصطفى فكن عوناً لنا على ما يجابهنا من إغراءات الحياة الدنيا ونزعات النفس والهوى والشيطان.

نحن نسمع كلماتك المباركات:

﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم﴾ [الأعراف: ٢٠٠]

ونسمع:

﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾ [الأعراف: ٢٠١]

وننفذ ما جاءت به تلك الهدايات المرشدات، ولكن ندعوك إلهى أن تريح المؤمنين من عناء النزغات الشيطانية ومتاعبها وأن تأخذ بيدهم فى معراجهم الروحى.

إن القلب ليخشع وإن العين لتدمع وإن النفس لتتقطع حسرات على ما فرطت فى جنب الله.

فاللهم الطف بنا ونجنا من مفازات نفوسنا ومهالكها إنك على كل شئ قدير وبالإجابة جدير. اللهم لا تؤاخذنا بذنوبنا وسوء أفعالنا، ولكن عاملنا بما أنت أهله من الجود والكرم، فأقل عثرتنا واغفر زلتنا واستر خطيئتنا وارحمنا من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا.

فكيف لنا بالنجاة إن لم يكن عون لنا منك؟بل كيف لنا بالإيمان إن لم تشملنا بكريم عفوك وعظيم لطفك؟ فبحار جودك واسعة يسبح فيها عبادك المخلصون يغترفون من عطاياك وكرمك مالا يحده الحد ولا يستوعبه الوصف.

فيا إخوة الإيمان:

إن الصراع الذى نواجهه فى الحياة هو محك الاختبارات التى خلقنا الله لها ويالها من اختبارات تبوء بحملها السماوات والأرض ولذلك أبين أن يحملنها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً.

فعلينا بجهاد النفس الأمارة بالسوء التى تعد بالجنة وهى تقود إلى النار، تحب زخرف الدنيا وزينتها وتكره مواطن الخير ومشقاته، فلا يمكن النجاة من حبائلها والتخلص من مكائدها إلا بالاستعصام بحبل الله المتين وسراجه المنير والسير على نهج القرآن الكريم وسنة النبى الحبيب وقد سبقنا فى هذا الجهاد ملايين البشر الذين قضوا عمرهم في الجهاد الأكبر ألا وهو جهاد النفس حتى يلقى الإنسان ربه بنفس مطمئنة راضية مرضية متحررة من رقة النفس وذل العبودية لغير الله وما أفظعه من ذل!

فاللهم صل وسلم على سيدنا محمد طب القلوب ودوائها وعافية الأبدان وشفائها ونور الأبصار وضيائها المبعوث رحمة للعالمين ليحررهم من شرور أنفسهم وسيئات أعمالهم.

(تم بحمد الله تعالى)

عبد الحميد كشك

الفهـــــرس

الموضوع	صفحة

الموضوع	صفحة